ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ( القرآن الحكيم)

# الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

**العـــــدد : ٧ ، السنـــــة : ٥٠**

**رجب ١٤٤٧هـ ، يناير ٢٠٢٦م**

تحت إشراف

**فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني**
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

**محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**
الأستاذ بالجامعة

**الاشتراكات**

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

**عنوان المجلة على الانترنت**
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

**طالعها الآن**

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

**المراسلات**

**رئيس التحرير مجلة الداعي**
**دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي ( الهند )**
**الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤**

**Chief Editor**
***AL – DAIE***
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
( U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
**Ph. : (00-91-1336) 222429**
**Fax : (00-91-1336) 222768**

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

# المحتويات


**كلمة المحرر**

- رحلة الإسراء والمعراج... تسلية للرسول ودليل على قدرة الله — التحرير — ٣

**كلمة العدد**

- قصة الإسراء والمعراج ... إيحاءات ودلالات — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

**الفكر الإسلامي**

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ١٠
- شبهات و ردود — المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ — ١٧
- الجهل سيد الموقف — الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد — ٢١

**دراسات إسلامية**

- كيف تدير الصلاة حياتنا؟ — الأستاذ أحمد بسام ساعي — ٢٦
- قصة الإسراء والمعراج كما تحدث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — الدكتور أحمد عمر هاشم — ٢٩
- وقفات وتأملات ....

  في ضوء ما أفاده حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي — الأستاذ محمد رضي الرحمن القاسمي — ٣٥
- موقف الإسلام من الفقراء — فضيلة الأستاذ سيد شريف — ٤٥
- حفظ اللسان — الأستاذ عبد الحميد حجازي — ٤٩

**أنباء الجامعة**

- وزير الخارجية الأفغاني يزور الجامعة على رأس وفد رفيع المستوى — التحرير — ٥١

**إشراقة**

- أما على الخير أعوان وأنصار؟! — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

# كلمة المحرر

## رحلة الإسراء والمعراج ... تسلية للرسول ودليل على قدرة الله

أمِرَ النبي ﷺ أن يصدع بدعوته إلى عبادة الله تعالى وحده، وإلى دين الإسلام، فناصبَه أهل مكة العداء، وأصبح المعارف أغرابًا يتنكرون له ولدعوته ﷺ، وفرشوا طريقَه وطريق الدعوة بالأشواك، و زرعوا فيه العقبات، ولم يدَع الكفرُ طريقًا من طرق صرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن دعوته، وإغواء المؤمنين به عن سبيل الهدى والرشاد الإسلكه، فلقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبُه في مكة – التي شهدت ولادتهم وطفولتهم وشبابهم وكحولتهم، وتنفسوا في جوها وشربوا من مائها- ألاقيّ و ويلات تقشعر منها الجلود، حتى تعرض النبي ﷺ لحادثين حزينين: موت أبي طالب – الذي كان يشكل رغم كفره خيرَ سندٍ و ركنا شديدًا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وخديجة بنت خويلد الحانية العاقلة النبيلة المؤيدة لدين الله المواسية لرسوله ﷺ في الأزمات بنفسها ومالها.

وأصيب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقلق شديد وحزن يعاوده على موت هذين النصيرين له ولدعوته. وفي خضم هذا الحزن الممض، والجو المعادي الحانق الخانق للدعوة الإسلامية وداعيها، والذي اشتدت فيه جولة الكفر وصولته، وارتفعت أسهم الشرك بالله تعالى، وقويت شوكته، أرادت حكمة الله تعالى أن يشد أزره، ويسري عنه الحزن، ويؤيده بشيء يفوق الطاقة البشرية، ويخرج عن القوانين الطبيعية المعروفة لديهم، وبشيء لافت للأنظار ومستهوٍ للقلوب. فأسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء:١]، وعرج به إلى السماوات العلى ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٤-١٨].

فكان الحدثان تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأكيدَ أن ربه لم يودِّعه رغم كل محاولات الإحباط من الكفرة، وتداعي المتاعب والمصائب و زحمة الأذى منهم، فهو معه ونصيره ومعينه في كل الأزمات. فلاتسأل كم كان هذا الحادثُ بردًا وسلامًا على قلب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وكم قوي وتعزز به فؤاده؟

والقصة فيها دعوة أيضًا لكل من يحصر فكره في ناحية واحدة من نواحي الحياة: الحياة المادية، ولايحس أن لها ناحية أخرى أهم وهي الناحية الروحية، ويطغى على تفكيره التفكير المادي البحت، فيحكم في كل شيء قوانينَ الطبيعة المادية، ويشد نفسه بها، فيستبعد هذه القصة، وغيرهما من معجزات وخوارق الأنبياء عليهم السلام، فهو أشبه بمن يتنفس برئة واحدة أو بمن يلوي عنقه إلى جانب، فلايرى ما في الجانب الآخر،فيهون عليه أن يؤمن بغزو علماء الطبيعة الفضاء، ويتعذر عليه أن يتخذ منه دليلًا على تقريب أحداث الإسراء والمعراج إلى عقله وذهنه. فتجلى بهذا الحدث أن الرسول مؤيد بقوة فوق القوة البشرية جمعاء: قوة الله تعالى التي لاقبل لأحد بها. ثم تُرك لهم الأمر: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢]، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف:٢٩]. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة السابعة صباحًا من يوم الثلاثاء: ١٤٤٧/٥/١٣= ٢٠٢٥/١١/٥م)

# قصة الإسراء والمعراج .... إيحاءات ودلالات

أرسل الله تعالى رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمةً وهدى للبشرية جمعاء، فقام النبي ﷺ بأعباء الرسالة منذ أول يوم أمر بالدعوة إلى الدين الخالد، والصدع بما أمره الله تعالى به، بغض النظر عما يواجهه به من أشرب في قلبه حبُّ الشرك وعبادة الأوثان، وران عليه بما كان كسب، ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر:٩٤-٩٦].

واستمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته سرًّا قبل أن يؤمر بالصدع والإعلان بها، لايلوي على شيء، لا على استهزاء الكفار به، واتخاذهم له هزؤا، ولا بما كانوا يصبونه عليه، وعلى كل من آمن به و صدَّقه من الويلات والاضطهادات، ويسومونهم سوء العذاب. وفشلت مخططاتهم ومكايدهم وحِيلُهم بألوانها وأنواعها التي لاتأتي على العد والحصر، والتي استهدفت وأد الدعوة في مهدها واجتثاثها من جذورها قبل أن تخرج شطأها وتستوي على سوقها، وتستقيم على قصبها. فلقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذى في الله ما لم يؤذَ نبي، و أخيف في الله وما خيف نبي. فروى الإمام الترمذي في سننه [برقم:٢٤٧٢] عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال».

وأشبع أهل العلم قديمًا وحديثًا الكلام على هذه القصة الباهرة وكشف الشبهات العالقة بالعقول القديمة والحديثة، والدروس والدلالات المستفادة من آيات سورة إسراء وغيرها، وتحدث عنها العلامة أشرف علي التهانوي (١٢٨٠-١٣٦٢هـ/١٨٦٣-١٩٤٣م) في تفسيره المسمى «بيان القرآن» باللغة الأردية حديثًا ضافيًا قيمًا، وهي جواهر علمية، ولآلي منثورة في هذا الباب، وارتأينا أن نسوقه هنا. فيقول تحت عنوان «هنا بعض التنبيهات والتحقيقات والإشكالات» ما يلي:

**التنبيه الأول:**

يطلق (سُبْحَانَ) للتنزيه والتعجيب، ولما كان هذا الإسراء عجيبًا، ودالا على القدرة العظيمة لكونه عجيبًا، فناسب الشروع به، .... وكان هذا

الإسراء بالبراق، كما في الصحاح، وكانت سرعته أيضًا عجيبة.

**التنبيه الثاني:**

يطلق على السير من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى «الإسراء»، ثم الصعود إلى السماء يطلق عليه العروج. وربما أطلقوا الكلمتين معًا.

**التنبيه الثالث:**

قوله: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ فيه فائدتان: الأولى: بيان قربه وقبوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والثانية: كيلا يقول أحد: إنه إله نظرًا إلى هذه المعجزة العجيبة.

**التنبيه الرابع:**

وزيادة ﴿لَيْلًا﴾ وإن كان الإسراء هو السير ليلًا، ليدل على التبعيض عرفًا ومحاورة، وليزداد دلالة على القدرة حيث تحقق هذا العمل الطويل في قليل من الليل، وساق صاحب روح المعاني التصريح بالدلالة على التبعيض عن عبد القاهر وتوجيهه عن سيبويه وابن مالك، فقال: الليل والنهار إذا عرفا كانا معيارًا للتعميم، وظرفًا محددًا بخلاف المنكر، فلما عدل عن تعريفه علم أنه لم يقصد استغراق السرى.

**التنبيه الخامس:**

يطلق المسجد الحرام على مطلق الحرم أيضًا، ويصح المعنيان هنا، فإنه قد ورد بعض الأحاديث بأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان وقتئذ في الحطيم، وبعضها بأنه كان في بيت أم هانئ، فيمكن حمل الآية عليهما. والجمع بين الحديثين ميسور جدًّا، فإنه لا يستبعد الخروج من بيت أم هانئ إلى الحطيم ثم السير منه.

**التنبيه السادس:**

سبب تسمية المسجد الأقصى به أن الأقصى في اللغة العربية بمعنى الأبعد، ولما كان المسجد الأقصى أبعد من مسجد مكة، سمي به.

**التنبيه السابع:**

وإن أمكن مشاهدة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العجائب من غير السرى، ولكن الإسراء وكذلك الركوب أعظم تكريمًا وبيانًا لمكانته.

**التنبيه الثامن:**

الحكمة في تخصيصه بالليل أنه وقت الخلوة عادة، واستدعاؤه فيه دليل على زيادة الاختصاص.

**التنبيه التاسع:**

المراد بالمسجد الأقصى هنا هو أرضه فقط، فإن المسجد أصالة هي الأرض، وأما البناء فمسجد تبعًا. والداعي إلى الحمل على هذا المعنى أن التاريخ أكد أن بناء المسجد الأقصى نُقِضَ في الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما سيأتي ذكره في تفسير آيات ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الخ، فظاهره يشكل بأنه ما معنى الإسراء إلى المسجد الأقصى ولم يكن موجودا حينئذ؟ وبتعيين هذا المراد زال الإشكال. فإن قيل: ما معنى ما ورد

في الحديث بأن المشركين المعترضين سألوه عن هيئة بيت المقدس وكيفيته؟ فالجواب عنه أولًا: يجوز السؤال عن هيئة وكيفية البناء المنهدم أيضًا، وعلاوة على ذلك، كان الناس بنوا بالقرب منه مباني، سموها بيت المقدس، فالسؤال كان موجهًا إليه.

**التنبيه العاشر:**

زيادة قوله: ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا﴾ ثناء ومدحًا، وأن يؤخذ منه كون هذا المسجد مباركا أولى؛ فإنه لما بارك فيما حوله، وليس مسجدًا، فلابد أن يبارك في المسجد؛ فإن البركة حوله على نوعين: الأولى: الدنيوية. فالحاجة إلى البركة الدينية أشد وأكثر. والثانية: الدينية، وهي دفن الأنبياء. وفي الدفن تلبس الجسد فقط، وكونه قبلة - كما كان قبلة لأكثر الأنبياء - فيه تلبس الروح، فصار أدعى إلى البركة؛ وخاصة إذا عبد فيه النبي وهو فيه، فيتحقق تلبس الجسد أيضًا، فإنه - علاوة على أنه كان قبلة – متعبد معظم الأنبياء ومحل عبادتهم. فاستدلوا بذلك على مباركة هذا المسجد نفسه. فما ورد في بعض الكتب أن موضع جسد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أفضل من العرش، فيناسب حمله على الفضل الجزئي. والله أعلم.

**التنبيه الحادي عشر:**

وإطلاق الآيات في قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ - الذي يدل عرفًا على العظمة والكمال-، والآيات السماوية خاصة، فقد كان في السماوات الأنبياء عليهم السلام أيضًا، كما ورد في حديث المعراج، أعظم وأكمل من الآيات الأرضية، فهذا الإطلاق يشير إلى أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أسري به وراء المسجد الأقصى أيضًا، ولذا فسر في روح المعاني بقوله: لنريه من آيتنا: أي لنرفعه إلى السماء حتى يرى ما يرى من العجائب. ولعل عدم التصريح به فيه نكتة، وهي أنه أكثر عجبًا. وإنكاره أقرب، وإنكار النص القاطع كفر، فكان عدم التصريح به رحمة بالضعفاء.

**التنبيه الثاني عشر:**

وإنما حملنا (من) على التبعيض؛ لأن الواقع كان ذلك، ففي الصحيح: أسمع صريف الأقلام، والظاهر أنه لم يرَ القلم.

**التنبيه الثالث عشر:**

بدأ بضمير الغيبة في قوله: ﴿أَسْرَىٰ﴾ وأنهاه بضمير الغيبة في ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ وساق بينهما ضمير التكلم الدال على التعظيم. ففيه هذه النكات: الأولى: تجديد الكلام وتنشيط السامع.الثانية: كون البركات والآيات والإراءة عظيمة. الثالث: وأشار بعد ﴿أَسْرَىٰ﴾ إلى زيادة القرب، والتكلم هو الأصل عند التكلم بالقرب.

**التنبيه الرابع عشر:**

من فوائد قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾- علاوة على الفائدة المذكورة في المتن-أنه وعيد

للمكذبين بأننانرى تكذيبكم ومخالفتكم، ونعاقبكم معاقبة.

**التنبيه الخامس عشر:**

زيادته بعد ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ يشير إلى أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإن رأى العجائب، ولكنه لايساوينا علمًا؛ لأننا نحن أريناه، فنحن نتصف بالسمع والبصر بالذات، ثم إنه لم يرَ إلا بعض الآيات، ونحن على سمع وبصر على الإطلاق.

**التحقيقات:**

**التحقيق الأول:**

ذكر هنا السرى إلى المسجد الأقصى، وأما الدخول فصرح به الأحاديث النبوية، وبأنه لقي الأنبياء عليهم السلام وصلى بهم.

**التحقيق الثاني:**

ولم تصرح هذه الآية بالصعود إلى السماوات، وإن أشارت إليه، وتشير سورة النجم إشارة أكثر منها صراحة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:١٣-١٤] أي رأى النبي ﷺ جبرئيل عليه السلام مرة أخرى عند سدرة المنتهى. ورآه في المرة الأولى ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. ويستظهر منه أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصل إلى سدرة المنتهى، لأن (عند) متعلقة بـ(رأى)، فيظهر من الرؤية عند السدرة أن الرائي والمرئي كانا عند السدرة، ثم إن الأحاديث وردت بتصريحات لاتدع مجالًا للإنكار.

**التحقيق الثالث:**

ذهب جمهور أهل السنة والجماعة إلى أن المعراج كان مع الجسد في اليقظة، والدليل عليه الإجماعُ، وهذا الإجماع يستند إلى أمور:

**الأول:**

أن عناية الله تعالى ببيان قصة الإسراء عناية تامة تدل على كونه في منتهى العجب، فلو كان المعراج نومًا أو روحانيًا، لم يكن أمرًا عجيبًا.

**الثاني:**

هذا ما يفيده ظاهر قوله: (بِعَبْدِهِ)، فإن المعنى الحقيقي المتبادر لقولهم: جاءني عبد فلان أنه جاء بجسده وروحه في اليقظة. فمصداق العبد هو مجموع الروح و الجسد، ويتقيد صدور الفعل منه باليقظة إلا أن يصرح بخلاف ذلك.

**الثالث:**

لو كان المعراج في النوم أو بالروح فحين كذَّبه الكفار أو سألوه عن بيت المقدس وقافلتهم، كما وردت الأحاديث بذلك، بعضها في الصحاح وبعضها رواه البيهقي وغيره كما في الدر المنثور، كان هينًا عليه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يقول لهم: هل أدعي بأنه كان في اليقظة؟حتى تقولوا هذا القول، وأهمَّ الرسولَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كيف يذكر هيئة بيت المقدس وكيفيته، كما في الأحاديث، فكشف الله

تعالى له عنه، فذكره لهم. رواه مسلم. وأشكل على بعضهم قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا﴾ الخ، فالجواب عنه أولًا: أن يراد به رؤيا قصة بدر أو عمرة مكة، كما ذهب إليه بعض المفسرين، وقد جاء ذكره مجملًا في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ و ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾. وإن حملناه على قصة المعراج فالرؤيا بمعنى الرؤية، فإنهما مصدران للفعل (رأى)، مثل القربى والقرابة، أو كما قال بعضهم: يطلق الرؤيا على الرؤية في الليل وإن كانت في اليقظة، أو أطلق عليه الرؤيا تشبيهًا، ووجه الشبه إما رؤية العجائب أو وقوعها في الليل، كذا في روح المعاني. ويمكن أن يقال: إن انكشاف عالم الغيب وإن كان في اليقظة، لابد له من الغيبة عن عالم الناسوت، ورغم أن بين الغيبتين بونًا شاسعًا، إلا أن الاشتراك في نفس الغيبة، كانت هذه اليقظة أشبه بالنوم. والله أعلم. وأشكل على بعضهم ما جاء في آخر حديث شريك من قوله: «ثم استيقظت»، فهو غير حافظ عند المحدثين وقد خالف الحفاظ، فكانت زيادته غير مقبولة، كذا في روح المعاني أو يحمل على تعدد الواقعة، فإن العلماء قالوا: عرج بالنبي ﷺ عروجا روحيًا مرات، أي عرج به في المنام قبل هذا المعراج. قالوا: الحكمة فيه الإعداد التدريجي والصبر على هذا المعراج الأعظم، ويمكن أن يقال: بناء على المذكور من التشابه بالنوم شبَّه انقطاع الغيب هذا بالاستيقاظ من النوم، وعبر عنه بـ (استيقظت). وأشكل على بعضهم أقوال معاوية وعائشة رضي الله عنهما، فالجواب عنه أن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لم يكن تزوجها النبي ﷺ حينئذ، وأما معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فلم يكن أسلم، فليت شعري من سمعه منه، فروى أو كان اجتهادًا منه، أو قال ذلك في قصة أخرى، وإذا جاء الاحتمال بطل الاستدلال. ويمكن أن يحمل قول عائشة رضي الله عنها: «ما فقد جسد محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» على أن الفقدان يراد به التلمس والبحث، كما في سورة يوسف من تنوير المقياس: ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي تطلبون ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ﴾ نطلب ﴿صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ الخ، والمعنى أن العودة من المعراج كان بسرعة لم يطلع أحد على غياب جسد رسول الله ﷺ، حتى يحتاج إلى طلبه أين هو؟وجاز أن يقول: ما فقد محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن نسبة الفعل إلى الجسد إشارة إلى تعلق المعراج بالجسد، أي غاب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيبة لو طلبوه لكان تعلق طلبه بجسده. فهذا مزيد تأييد -على خلاف ما ذهبوا إليه- لإثبات المعراج بالجسد، لا نفيه. ولو حملنا الفقدان في قوله: (ما فقد جسد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على المعنى المشهور، فإنه لاينافي المعراج الجسماني، فإن معنى الفقدان ليس مجرد الغيبة والضياع؛ بل معناه فعل الفقدان، الذي لابد

لـه مـن فاقـد وآخـر مفقـود، فـالمعنى لم يفقـد أحـد الرسـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولم يجده غائبا من البيت في تلك الليلة، وهذا صحيح؛ فإنه ﷺ حين خرج كان أهله كلهم نائمين، ورجع قبل أن يستيقظوا، أي لم يصل الأمر إلى ألا يراه أحد في البيت.

**التحقيق الرابع:**

من أنكر السرى إلى بيت المقدس فقد كفر، ومن أوَّله فقد ابتدع، وأما منكر سيره إلى ما وراءه فمؤوله مبتدع، ورغم أن سورة النجم تكاد تكون صريحة في ذلك؛ ولكن قوله: (عند) يحتمل أن يكون مفعولا لقوله: (رآه)، فلم يكن نصًا في وصوله إلى سدرة المنتهى.

**التحقيق الخامس:**

اختلفوا: هل رأى ربه في تلك الليلة أم لا؟ واختلف فيه السلف والخلف كلهم، والروايات تحتمل التأويل. فإن الرواية المثبة للرؤية يحتمل أن يراد بها الرؤية بالقلب، والمراد بنفي الرؤية نفي رؤية خاصة، مثلًا يكون هذا التجلي أقل من التجلي يوم القيامة في الجنة، وإن صدق عليه الرؤية. كما أن الرؤية بغير نظارة رؤية، والرؤية بالنظارة أكثر تجليًا، فالتوقف في هذه المسألة أفضل.

**كشف الإشكالات:**

**كشف الإشكال الأول:**

أشكل على بعضهم أنه قال في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [ الأنعام:٧٥]. وقال في حقه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بـ(من) التبعيضية، فلماذا؟ فالجواب عنه أن ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ليست كل الآيات، وربما كانت هذه البعض الذي أُرِيه ﷺ أعظم من ذلك البعض.

**كشف الإشكال الثاني:**

يشكل بعض أصحاب الظواهر بأنه يستحيل الخرق والالتئام على الأفلاك. فالجواب عنه أن مقدمات هذا الدليل كلها باطلة، كما ذكِرَ في محله.

**كشف الإشكال الثالث:**

قيل: كيف تتأتى هذه السرعة الرهيبة؟ فالجواب عنه أن بعض الكواكب رغم عظمها في منتهى السرعة، و لاحد للسرعة عقلًا.

**كشف الإشكال الرابع:**

قيل: ليس تحت السماء هواء، والحرارة شديدة، فلايسلم الجسم العنصري من الهلاك؟ والجواب عنه أن المحال لايمكن وقوعه، وأما المستبعد فواقع.

**كشف الإشكال الخامس:**

قيل: ليس ثمة سماء؟ والجواب عنه: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١].

**محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**

# من ظلال التفسير

## (من سورة الأعراف ١٨٧-٢٠٦)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

ذكر أولا في قوله: ﴿عَسَىٰٓ اَنْ يَّكُوْنَ قَدِ اقْتَرَبَ اَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف:١٨٥] أجل قوم معين بأنهم لايعلمون متى يأتيهم؟ ونبه هنا على أجل الدنيا – القيامة- بأنه إذا كان لايعلم أحد متى يأتيه أجله فأنى يخبر أحد بأجل الدنيا بأنه سيأتيها يوم كذا وعام كذا؟ ولايعلمه بالتعيين إلا علام الغيوب. فهو الذي يظهره ويوقعه على أجله المحدد، بأنه كان وقته كذا وكذا في علم الله تعالى. وهذا الحدث أعظم حدث في السماء والأرض، وعلمه أيضًا عظيم، فلايعلمه إلا الله تعالى. وإن كان أظهر الله تعالى على أماراته الأنبياء عليهم السلام وخاصة خاتم الأنبياء محمدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. ثم إنه بعد ظهور هذه العلامات كلها حين تقع الساعة تقع في غفلة تامة وفجأةً، كما ورد تفصيله في أحاديث البخاري وغيره.

**فائدة:**

أسلوب سؤالهم يبين أنهم يظنون بك – فيما يبدو- أنك اشتغلت أيضًا في تحقيق هذه المسألة والبحث والتفتيش عنها، وتوصلت إلى علمها بعد البحث والتحقيق، مع أن هذا العلم خاص بالله تعالى، وماكان الأنبياء ليتعرضوا لما أمسكه الله تعالى. كما أنهم لايقدرون على أن يطلعوا عليه بعد السعي والجد. وإنما وظيفتهم أن يقبلوا بمنتهى الشكر والتقدير العلوم والكمالات التي لاتحصى ولاتعد، مما أفاض الله تعالى عليهم. ولكن لايعلم ذلك عامة الناس الذين هم كالأنعام.

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨

دلت هذه الآية على أن العبد - مهما سمت منزلته- لايستقل بمُلك ولا علمٍ محيط، وقد أمِرَ سيد الأنبياء عليه السلام- الذي أعطي علم الأولين والآخرين، واؤتمِنَ على مفاتيح خزائن الأرض- أن يعلن: إني لاأملك لنفسي- فضلا عن غيره- نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله تعالى. ولو كنت أعلم كل غيب لكسبت كثيرًا من الحسنات والفلاح، مما يفوت حينًا لعدم العلم بالغيب. وكذلك لم يصبني سوء. فمثلًا كم من يومٍ قلقَ فيه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في قصة الإفك على انقطاع الوحي؟ و صرح في حجة الوداع: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي». وعشرات أمثالها من القصص التي كان من الميسور جدا الحيلولة دونها إن كان يعلم الغيب. وأعظم من ذلك عجبًا تصريح النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في بعض روايات حديث جبرئيل: لم أعرف جبرئيل حتى قام عني. وهذه القصة كما صرح به المحدثون كانت في نهاية عمره ﷺ، وقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حين سئل عن القيامة: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، فكأنه أخبرَ بأنه لايحيط بالغيب علمًا إلا الله تعالى. وفضلا عن علم الغيب، لايحيط أحد بالمحسوسات والمبصرات علمًا إلا إذا أعطاه الله ذلك العلم. فإن لم يشأ حينًا من الأحيان أن ندرك المحسوسات عجزنا عنه. فهذه الآية صريحة بأنه ليس الملك المستقبل أو العلم المحيط من لوازم النبوة، كما يظن بعض الجهلة. نعم يجب أن يكون الأنبياء عليهم السلام على علم كامل بالشرعيات التي تتعلق بوظيفتهم، وأما العلم بالتكوينيات فبالقدر الذي يمنحه الله تعالى أحدًا. وعلم نبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يفوق جميع الأولين والآخرين في هذا النوع. وقد أعطاه الله تعالى من العلوم والمعارف الكثيرة التي لايقدر على إحصائها خلق من خلق الله تعالى.

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠

خلق الله تعالى الناس كلهم من آدم عليه السلام، وأخرج منها زوجها – حواء- ليسكن

إليها، ثم كان لهما ذرية، ولما قضى الرجل حاجته الطبيعية من المرأة، حملت حملا خفيفًا في أول مراحله، وهي تمشي وتتحرك، وتقوم وتقعد كالمعتاد. فلما عظم بطنها، ولا يدري أحد ما يكنه بطنها، تضرع الرجل والمرأة إلى الله تعالى لئن آتيتنا ولدًا صالحا لنكونن نحن- بل ذريتنا أيضًا- من الشاكرين لك. فلما حقق الله تعالى أمنيتهما، أخذا يشركان غيرنا فيما أعطيناهما، مثلا: اعتقد بعضهم بأن هذا الولد إنما أعطاه فلان من الخلق حي أو ميت. ومنهم لم يعتقد ذلك إلا أنه أخذ ينذر النذور له عملًا، أو أخضع له جبين الطفل، أو سماه اسمًا يشير إلى الشرك، مثلا: سماه عبد العزى أو عبد الشمس وغيرهما، فصرف - اعتقادًا أو عملًا أو قولًا- إلى غيره ما كان للمنعم الحقيقي من الحق. فاعلموا جيدًا أن الله تعالى أجل من أنواع الشرك ومراتبه كلها. وذهب الحسن البصري وغيره إلى أن هذه الآيات تصور- لا حالة آدم وحواء خاصة-؛ بل حالة عامة البشر. و رغم أنه مهَّدَ لذلك في أوله بذكر آدم وحواء في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] إلا أنه انتقل بعد ذلك إلى ذكر الرجل والمرأة مطلقًا، وهذا كثير بأن ينتقل إلى ذكر الجنس بعد ذكر شخصٍ منه، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥]. والكواكب التي سماها «مصابيح» ليست من النجوم تنقض وترجم بها الشياطين؛ ولكن نقل الكلام من شخص المصابيح إلى جنس المصابيح، ولا إشكال في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ بناء على هذا التفسير. ولكن المنقول عن معظم السلف أن هذه الآيات لاتتناول إلا قصة آدم وحواء. قالوا: جاءها إبليس اللعين وخادعها وأخذ منها العهد على أنها إن ولدت ذكرًا سمته عبد الحارث، وأقنعت حواء آدم بـه أيضًا. فلما جاء الولد سمياه عبد الحارث،-والحارث اسم الشيطان، كان يدعى به في الملائكة -، وغير خافٍ أن الأعلام لاعبرة فيها بالمعنى اللغوي حتى لو كان له اعتبار فإن إضافة «عبد» إلى «الحارث» لاتستلزم اتخاذ «الحارث» إلهًا. فالعرب تسمي المضياف «عبد الضيف»، ولايعني ذلك إطلاقًا أن المضيف يعبد الضيف. فلو صحت قصة هذه التسمية لم يصح أن نقول: إن آدم عليه السلام-العياذ بالله- قد أشرك، مما ينافي عصمة الأنبياء. نعم إنه لايناسب ما عليه النبي المعصوم من المنزلة السامية وعاطفة التوحيد التسمية بما يوحي ظاهره إلى الشرك. ومن

عادة القرآن الكريم أنه يعبر في الغالب عن أدنى زلات الأنبياء المقربين بعنوان فظيع. كما قال في قصة يونس عليه السلام: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَّقْدِرَعَلَيْهِ﴾ أو قال: ﴿إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ [يوسف:١١٠] على ماذهب إليه بعض المفسرين، وقِس عليه ما هٰهنا أنه عبر تغليظًا عما يوهم الشرك بهذه الألفاظ ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَآ اٰتٰىهُمَا﴾، أي ما كان لهما أن يسميا بهذا الاسم الذي يوهم ظاهره الشرك، وإن لم يكن شركًا في الواقع. ولعله من أجل ذلك لم يطلق عبارة مختصرة مثل (فقد أشركا) ونحوها، واختار أسلوبًا فيه طول: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَآ اٰتٰىهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠]، والله أعلم.

**تنبيه:**

أفاد الحافظ عماد الدين بن كثير بأن حديث التسمية بعبد الحارث، الذي رواه الترمذي معلول من ثلاثة وجوه. وأما الآثار فلعلها مأخوذة من روايات أهل الكتاب. والله أعلم.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾

ذكر آنفًا نوعًا من الشرك، وبمناسبته رد في هذه الآيات على عبادة الأصنام. أي الذي لايخلق أحدًا، بل كان مخلوقًا، أنى يكون إلهًا لكم؟

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

أي الأصنام التي اتخذتموها آلهة وصرفتم إليها حق الألوهية ماكانت تنفعكم وهي لاتملك لنفسها شيئا. وعلى رغم كونها مخلوقة لاتملك شيئا من الكمالات التي قد يتفوق بها خلق على خلق آخر، وإن كنتم تصنعون لها الأيدي والأرجل والعيون والآذان الظاهرة كلها، ولكن لاتحمل هذه الأعضاء من القوة التي تجعلها أعضاء. فلاتمشي على الأرجل المصنوعة إليكم إذا ناديتموها، و لاتمسك بأيديها شيئا، ولاترى بعيونها، ولاتسمع بآذانها. وإنها لاتسمع نداءكم، ولاتمشي على رجليها ولاتستجيب لكم مهما بالغتم في ندائها ولو انشق لها حناجركم. وسواء عليكم أ صرختم في وجهها أو لازمتم الصمت، فلاينفع هذا ولا ذاك. ويا للعجب إنكم

اتخذتم إلهًا ما يعجز في كونه مملوكًا ومخلوقًا مثل عجزكم؛ بل هو أرذل منكم في الوجود وكمالاته، ثم تهددون كل من يرد عليه بالإضرار؟! فكان مشركو مكة يقولون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نخشى عليك أن يصيبك سوء إن لم تمسك عن الإساءة إلى أصنامنا ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر:٣٦] فأجاب عنه بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الخ أي ادعوا شركاءكم جميعًا ثم أكملوا مخططاتكم وتدابيركم ضدي، ثم لاتمهلوني ولو دقيقةً واحدةً، فأرى كيف تضرونني؟

إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾

أي الذي نزَّل علي الكتاب، وجعلني رسولا، هو الذي يحفظني من العالم كله؛ فإنه يحفظ وينصر عباده المؤمنين.

وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

أي لهم عيون في الظاهر، ولكن هل فيها بصر؟

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

حمل قوله: (خُذِ الْعَفْوَ) على عدة معانٍ، حاصل معظمها اجتناب الشدة والغلظة، وهو ما عبر عنه المترجم المحقق بعادة التسامح. وما تضمنت الآيات السابقة من تسفيه عبدة الأصنام و تجهيلهم كان أقرب إلى أن يثير حفيظة المشركين الجهلة، ويتصدوا للتصرف الشنيع، أو يسيئوا القول، فأرشد إلى ضرورة الإعراض عن تصرفاتهم الجاهلة، فإنهم سيقضى عليهم كلمح بالبصر حين يأتي موعده.

فإن استخفك بمقتضى البشرية غضب على شيء من تصرفاتهم السفيهة، وتعرض لك بوسوسته، وحملك على أمر يخالف المصلحة أو خلقك العظيم وحلمك ووقارك، فبادر إلى الاستعاذة بالله تعالى، فإنه لاينطلي له كيد على عصمتك وجاهك، فإن الله تعالى سميع لقول كل مستعيذ، وعالم بحاله، فتكفل بصيانتك وحفظك.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

أفرد أولًا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخطاب، وإن

كان الأمر بالاستعاذة عامًا لهم جميعًا، ثم ذكر حال عامة المتقين، أي لايستحيل على عامة المتقين أن يمر بهم الشيطان، ويوسوس إليهم، ولكن من شأن المتقين أن غفلتهم لاتمتد بإغواء الشيطان، فإنهم إذا غفلوا سرعان ما يتذكرون الله تعالى وينتبهون، ويعثرون وسرعان ما يعودون إلى رشدهم، وما إن عادوا إلى رشدهم حتى فتحوا عيونهم وانقشع حجاب الغفلة عنهم.

وينظرون إلى عاقبة الحسنة والسيئة، ويمسكون عن القبيح عاجلا. وأما غير المتقين – الذين لاتنطوي قلوبهم على تقوى الله تعالى، ولنقل: إنهم إخوان الشيطان- فإن الشياطين يستمرون في جذبهم إلى الضلال، ولايدخرون جهدًا في ملاحقتهم. وهم لايقصرون في اتباع الشياطين، فيزيد ذلك من غرور الشاطين وبغيهم.

وأما المتقي، فعليه أن يتعجل في الاستعاذة بالله تعالى إذا أحرجه الشيطان، فإن التمادي في الغفلة يمنع التوفيق للرجوع إلى الله تعالى.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

وكان إذا تأخر الوحي عن النبي ﷺ استهزأ به الكفار وقالوا: هلا اخترعت آية لنا، أليس القرآن كله من اختراعك واختلاقك؟-العياذ بالله-، وكذلك كانوا يحرجونه بمطالبة آيات – معجزات-، ما اقتضت حكمة الله تعالى إراءتها. فإذا أبى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأتي بها،قالوا: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي هلا طلبت ربك واخترعت الآية التي نطلبها، فرد على الأمرين بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوْحَى إِلَيَّ مِنْ رَّبِّيْ﴾ [الأعراف:١٠٣] أي قل لهم: ليس من وظيفة النبي أن يفتري على الله تعالى أو يطلب – بناء على طلب بعض الناس- إلى الله تعالى ما ينافي حكمته إعطاءه، أو ما لم يأذن له بالطلب، وإنما وظيفته أن يتقبل ما يوحيه الله تعالى إليه، ويمتثله، ويدعو غيره إلى العمل به. وأما الآيات التنزيلية والتكوينية التي تطلبونها مني، فهل من آية تفوق القرآن الكريم؟ وهل معجزة أعظم شأنًا منه؟ فإن القرآن الكريم خزانة من البصائر والحقائق والعظات للعالم كله، و هدى من نوع خاص، ورحمة للمؤمنين، فهل أنتم مستعدون لقبوله، حتى ذهبتم تطلبون آيات تقترحونها؟

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

وحيث إن القرآن الكريم نعمة غالية ومعدن

العلـم والهـدى، فـإن مـن واجبـات قراءتـه عـلى السامعين أن يـصغوا إليـه بـآذانهم، ويـسمعوا لهـداه سماع قبول، ويعرضوا عن أنواع الحديث والشغب والفـوضى والـذكر والتفكـير، ويـستمعوا لـه بكـل أدب، ليستحقوا رحمة الله تعالى وكرمه. فلو سمع الكافر القرآن الكريم هذا السماع فعسى أن يدخل في الإسلام برحمته سبحانه، وأما المسلم فيصير وليًّا من أولياء الله تعالى أو– على أقل تقدير– ينال الأجر والثواب.

استنبط كثير من أهل العلم من هذه الآية أن الإمام إذا قرأ في الصلاة وجب على المؤتم السماع والإنصات، كما في حديث أبي موسى وأبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «إذا قرأ فأنصتوا»، وليس هذا موضع تفصيل هذه المسألة، وقد بسطنا القول فيها مع ما له وعليه في شرح مسلم.

وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

الذكر الأعظم هو القرآن الكريم، وسبق ذكر آدابه. ثم أردفه بعض الآدب للذكر العام، أي أن الروح الأصلي للذكر هو ما يقوله بلسانه، يصغي إليه بقلبه، ليظهر نفع الذكر كاملا، ويشتغل العضوان: اللسان والقلب في ذكر الله تعالى. ويجب أن يرق القلب عند الذكر، ويدعو الله تعالى برغبة و رهبة صادقة، كما يدعو المتملق الخائف غيره، ويجب أن يسود لهجة الذاكر وصوته و هيئته الضراعة والخوف. ومن الطبيعي انخفاض الصوت قليلا بعظمة الذكر والمذكور وجلالهما، ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]، فكثرة الصراخ ممنوعة. فيذكر الله تعالى بصوت خفي سرًّا أو جهرًا، فيذكره الله تعالى، فهل للعاشق سعادة فوق ذلك؟!

إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

أي لاتغفلوا عن ذكره في الليل والنهار، وخاصة في الصبح والمساء، وإذا كانت الملائكة المقربون لايستنكفون عن عبادته؛ بل ينصرفون إليه دائمًا، فأحرِ بالإنسان ألايغفل عن ذكره و عبادته والسجود له، فيجب السجود على هذه الآية.

انتهت سورة الأعراف، ويليها سورة الأنفال.

* * *

* *

# شبهات و ردود

**(الحلقة ٥)**

بقلم : **المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ
المعروف بـ«حكيم الأمة» المتوفى ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م
**تعريب : محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**

**تتمة إصلاح الخيال:**

حامدًا ومصليًا، بعد أن رُتِّبَتْ هذه المجموعة تلقى الرجل الناصح رسالة أخرى من الأخ المذكور في الخطبة، تتضمن شبهات أخرى. والجواب عنها يكشف هذه الشبهات أيضًا فرأيت ضم هذه الرسالة إلى هذه المجموعة.

**رسالة الأخ العزيز:**

**بيان الشبهة الثامنة عشرة:**

كانت نفسي تحدثني بكتابة الرد على رسالة فضيلتكم من مدة طويلة، ولكن زحمة الأعمال حالت دون أن أوفق لذلك. وكم نويت أن أختصر الكلام إليكم، ولكن حدثتني نفسي أن أفصله، وحيث لم يتوفر لي هذه الفرصة، فتعجلت في كتابة رسالة موجزة اليوم خشية أن توهم – بعد مرور مدة – أن هذه الكتابات هي الدافع إلى ترك الكتابة والمراسلة. وليس الأمر كذلك. وأؤكد لكم كل تأكيد بأني ثابت على الإسلام، وأعده خير الأديان.

**بيان الشبهة التاسعة عشرة:**

لا أشك في توحيد الله تعالى إطلاقًا، وأنا متقيد به بشدة، وبما أن التوحيد علمناه رسولنا ﷺ، وفُزنا بهذه النعمة الكبرى على يده، فأؤمن بأنه نبي حق، وأما أنه معشوق الله تعالى، وأن الكون خلِقَ لأجله، ولافرق بينه وبين الله إلا حرف واحد وهو الميم، فهذا ليس من عقيدتي. فأؤمن أنا وأنتم بما نص عليه القرآن الكريم:

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ [الكهف:١١٠].

هذا ما يخص الإيمان، وأجدني على إيمان صحيح. ولايطلع عليه إلا ربي سبحانه وتعالى.

**بيان الشبهة العشرين:**

ثم خذ ما يسمى بالدين، وخذ الأمر بالصلوات الخمس، فقد أدركت ما فيها من المصالح إدراكا استدلاليًا، وأنا على علمٍ بأنه لا سبيل خيرًا منها لعبادة الخالق والشكر له. وعلى الناس جميعًا أن يلتزموها.

**بيان الشبهة الحادية والعشرين:**

ولا أشك في الحج والزكاة، وأما الصوم فينتابني وجوه من الشك فيه، لا في كونه فريضة؛ بل في تخصيصه بشهر رمضان، وأحاول أن أطمئن قلبي في ذلك، ولا أود أن يتأصل الاتجاه المخالف؛ بل يتأصل الاتجاه الموافق.

**بيان الشبهة الثانية والعشرين:**

وأما اللباس ونحوه، فلايخطر ببالي لحظة أن له يدًا في الإيمان أو الدين؛ فحيث إننا نؤمن بالعقائد الإسلامية بقلوب صادقة، فلنكن أعزة في الدنيا، ولنتخذ ما يناسب من الطرق والسبل إلى ذلك شريطة عدم إخلالها بالعقائد الإسلامية. وأرى- بمقتضى الزمان- الحاجة إلى اللبسة الإنجليزية حاجتي إلى البول والبراز أي أن المرء يحاول أن يقضي حاجته الطبيعة ويخرج من الحمام أسرع ما يمكن، وأنا في مثل هذه الحال، فلاأرضى أن أبقى لحظة واحدة في هذه اللبسة بعد أن أرجع إلى البيت.

**بيان الشبهة الثالثة والعشرين:**

أرى فيما يخص تعليم ولدي أن أعلمه العربية، وأمكنه من ختم القرآن الكريم، ثم أعلمه العلوم الدنيوية، فإن كنتم تشكون في هذه الأمور بالنسبة لي فلايسعني مزيد القول. والأمر الثاني أني أطعن طعنًا شديدًا في التعليم الذي يزوَّدُ به المسلمون في المدارس العربية فإن رأيت إصلاح تعليمه فواصِل الكتابة حوله، وأنا أساعدكم عليه بعلمي الدنيوي.

**بيان الشبهة الرابعة والعشرين:**

أصدقكم أن المسلمين سيصبحون فريسة الهلاك والضياع عما قريب، وما أقرب الزمن الذي يهلك فيه دين المسلمين ودنياهم، وذلك من جراء هذا التعليم الأخرق الذي يزوَّد به المسلمون. وما أشرت إليه من التردد في عقيدتي أستحسنه في الواقع؛ لأنه أدى بي إلى البحث و التحقيق. والأسلوب الحر الذي اتبعته في بيانه وإيضاحه بعيد عن النفاق.

٢٨/يونيو ١٩٠١م

**جواب الناصح:**

**كشف الشبهة الثامنة عشرة:**

كنت قلقًا حين توقفت مكاتبتك، وقد زال هذا القلق اليوم ولله الحمد.

**كشف الشبهة التاسعة عشرة:**

ما ذكرت من عقيدتك في التوحيد والرسالة على غاية الصحة والصواب. وفقنا الله تعالى للثبات عليها. وفات أمر يخص الرسالة، وهو أن القول بعموم بعثته ورسالته هو الصحيح، وأما القول بأنها تخص العرب فباطل أساسًا، ومخالف للكتاب والسنة. وعقيدة الاختصاص هذه لايكفي في النجاة. وأما وصف الله تعالى بالمعشوق، فإن كان بمعنى المحبوب، فمن الضروري أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محبوب الله تعالى، وأكد القرآن الكريم في أماكن كثيرة أن الله تعالى يحب الصالحين، والنبي ﷺ أصلح الصالحين، فكيف لايحبه الله تعالى. وأما إن

كان المراد بالمعشوق، وهي طبيخة عقول الشعراء، فلايجوز اعتقاده فضلًا عن وجوبه. وأما الفرق بالميم فليس من عقائد الإسلام؛ بل هو عبث محض. وإن صح بتأويل بعيد فذاك أمر آخر. وهذا لاصلة له بالعقائد، وأما خلق الكون من أجله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمعناه صحيح في نفسه، والرواية به غير قاطعة، فلايدخل في العقائد الضرورية.

**كشف الشبهة العشرين:**

ثم حصر السائل الدين في الصلاة والصوم والحج والزكاة وحدها، فإن أراد به أركان الدين فصحيح، وهذا لايستلزم أن تنحصر أحكام الدين فيها. وإن أراد به أحكام الدين، فهذا الحصر باطل. فالدين يشتمل على آلاف الأحكام، منها فرض وواجب، وسنة كما لايخفى على أهل العلم.

ثم قال السائل:

«فقد أدركت ما فيها من المصالح إدراكا استدلاليا».

ليس هذا محل نزاع، ولكن إدراك الفروع بصورة استدلالية محل نظر وتأمل. واعلم أن مبادئ الدين عقلية واستدلالية دائمًا، وأما الفروع فمنقولة وشرعية، والمصالح التي تبدو فيها هي في مرتبة الحكمة، لا في مرتبة العلة، حتى تبتني الأحكام عليها، واعتبار هذه المصالح علةً فإنه لايُستبعد معه إنكار أصل الحكم إذا تغير الرأي لسبب من الأسباب. وليس علينا أن ندرك ونفهم الفروع بالأدلة العقلية؛ فإنه ما دام ثبتت النبوة بالدليل العقلي؛ فإن الأحكام التي يأتي بها النبي ﷺ هي من عند الله تعالى. وما كان من الله تعالى فهو صواب وحق. وهذا الدليل الإجمالي فيه غنية، ولسنا في حاجة إلى تفصيل الأدلة. وأما إذا لم نعتبر المبادئ عقلية فإنه يستلزم المحالات، وتفصيله يطول. وأما الفروع فيجب عدم مخالفتها لدليل عقلي قاطع، فإن أثبت أحد مخالفتها له، وجب على صاحب الدين أن يجيب عنه.

**كشف الشبهة الحادية والعشرين:**

ثم أبدى شكه في تخصيص الصوم برمضان، وقال:

«وأحاول أن أطمئن قلبي في ذلك».

ليت شعري هل المراد الطمانينة الشرعية أو العقلية. فإن أراد الشرعية، فإن الأدلة الشرعية القاطعة من القرآن والحديث قائمة عليه، فما معنى عدم الطمانينة؟ وإن أراد بها الطمانينة الشرعية، فقد أشرت إلى الضابطة في ذلك، وهي أنه لايجب ثبوت الفروع بالأدلة العقلية.

**كشف الشبهة الثانية والعشرين:**

ثم ذكر أن اللباس ليس على صلة بالدين، فإن أراد بالدين أركانه، فلاشك أنه ليس من أركان الدين، وهذا لايستلزم خروجه من الأحكام، وإن أراد به أحكام الدين، فمن الخطأ المحض القول بأنه لاصلة له بالدين. ونص الحديث على منع كثير من

الألبسة مقرونًا بالوعيد، فما معنى الأحكام.

ثم قال السائل:

«وأرى- بمقتضى الزمان- الحاجة إلى اللبسة الإنجليزية...».

فأقول: هَبْ أن الزمان إذا اقتضى عدم إقامة الصلاة حينًا من الأحيان، فهل يجوز أن نتخلى عن الصلاة أيضًا؟ وإن اقتضى الزمان يومًا عدمَ النطق بكلمة الشهادة، فهل تحرم هذه الكلمة أيضًا؟ اللّٰهم إلا أن الضرورة الشديدة قد تجلب التخفيف، فما لم تثبت الضرورة الشديدة لامجال للجواز فيه.

**كشف الشبهة الثالثة والعشرين:**

وما أحسن الرأي الذي أبداه في خصوص تعليم الولد، اللّٰهم إلا أنه يزاد عليه ألا يتخذ هذه العلوم الدنيوية سببًا إلى كسب الحرام.

**كشف الشبهة الرابعة والعشرين:**

ثم قال:

«فإن رأيت إصلاح تعليمه فواصِل الكتابة حوله، وأنا أساعدكم عليه بعلمي الدنيوي».

أخي العزيز، أتمنى أن يتحقق الإصلاح، ولكن من له إذا لم يقدر، وحيث لاأقدر على الإصلاح فمن العبث السؤال عنه اللّٰهم إلا أني إذا اطلعت على أمر منطقي، فإني أنقله إلى غيري، ولكن لا أرى من الإصلاح إلا ما لم يتضمن مخالفة حكم شرعي، وإلا فهو الفساد كله.

أما قوله:

«أصدقكم أن المسلمين سيصبحون فريسة الهلاك والضياع عما قريب».

فأقول: لايصبحون فريسة الهلاك والضياع بسبب العلوم الدينية القديمة إلا في المستقبل، وأما ضياعهم بسبب العلوم الدنيوية فقد تحقق من زمان. وأيهما أحق بوصفه بالخرق: التعليم الذي ضاعوا من أجله من زمانٍ أو ما يُدَّعَى- سواء كانت الدعوى صحيحة أم باطلة- ضياعهم من أجله في المستقبل. وأما التحقيق المقرون بالحرية فلابأس به، شريطة طلب الحق والإنصاف.

والسلام

فائدة الكتابات المذكورة وتأثيرها

نحمد الله تعالى على أن هذه الأجوبة كان لها وقع طيب في قلب السائل، فتلقيت منه رسالة ثالثة، جاء فيها:

«رسالتكم الكريمة السابقة في خصوص الاعتقادات، أجدها موافقة لما أعتقده برمتها، ولايخالجني -ولله الحمد- شيء.

**رد المؤلف:**

إذا انطوى القلب على الإنصاف، ورغب في طلب الحق، فإنه لابد أن يؤثر. وقد صدرت مثل هذه الشبهات من العقلاء الآخرين أيضًا. والمرجو أن تنظر في هذه الأجوبة بعين الإنصاف، وتطهر قلبك من الكدر وظلمة الشبهات. والسلام على من اتبع الهدى.

٥/جمادى الآخرة ١٣١٩هـ.

# الجهل سيد الموقف

بقلم: **الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد** (*)

بداية الجهل هو نقيض العلم، سواء كان عدم علم بأمر ما إطلاقًا، أو العلم عنه بخلاف ما هو عليه، ولا يختص الجهل بغير المتعلمين أو غير الحاصلين على درجات علمية وشهادات أكاديمية، كما لا يقتصر على الجهل بالعلوم التي يتم دراستها في المدارس والمعاهد العلمية، ولكنه يمتد ليشمل آفاق المعرفة ببعض أو بكل ما يحيط بالمرء والمجتمع من حوله، من أمور ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية وتأريخية بل دينية أيضًا، وسواء كانت أمورًا خاصة بأفراد أو هيئات أو عامة تخص المجتمع وغيره من المجتمعات. وفي الواقع لا يوجد شخص يجهل كل شيء، وقد تفضل الله عز وجل على آدم وعلمه الأسماء كلها، ويتوارث أبناء آدم هذا العلم جيلًا بعد جيل، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١] كما قال عز وجل في سورة الرحمن [الآيات:١-٤]: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ قال قتادة: الإنسان يراد به جميع الناس فهو اسم للجنس. وقال سبحانه وتعالى في سورة العلق [آية:٥]: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ والإنسان هنا آدم عليه السلام، علمه الله عز وجل أسماء كل شيء، فلم يبق شيء إلا وعلم آدم اسمه، بكل لغة، ثم توارثت ذلك ذريته خلفًا بعد سلف وتناقلوه قومًا عن قوم. كما لا تنتفي هذه الصفة عن الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢] قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ظلوما لنفسه، جهولا بأمر الله وما احتمل من الأمانة. وقال مجاهد: كل من عصى الله خطأ أو عمدًا فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب. وقد وصم بعض الأنبياء أقوامهم به، قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود:٢٩] وقال لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:٥٥] وقال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف:٢٣] كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لإخوته: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩] كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لبني إسرائيل: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨] كما قال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام للمشركين من قومه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر:٦٤] وقال تعالى عن مشركي

(*) ٦ شارع محمد مسعود وابور المياه الإسكندرية جمهورية مصر العربية.

قريش: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١] وبالرجوع لسياق الآيات يمكن معرفة فيما كان جهلهم.

كما حذرتنا الآيات من الجهالة، وهي أن تفعل فعلًا بغير العلم، كما جاء في لسان العرب. قال سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦] وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧] وقال تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٩].

وإن لم يكن الجهل بمستغرب، فالغريب حقًا هو تلك الثقة والجرأة التي يتمتع بها من يتفوه بجهل، كما لو كان أصاب كبد الحقيقة، فادعاء جاهل بأمر ما، درايته وعلمه به، والتحدث فيه بملء فمه، وكأنه أحد جهابذة عصره، وبما لديه من كاريزما وقدرة في استخدام أعضاء أجساده ونبرات صوته على الإقناع، ينجذب إليه من هم على شاكلته أو دونه في الجهل بالأمر، وكلما زاد التفات الناس حوله، ارتفعت مكانته في نظرهم، وزاد ثقة بأن ما هم عليه من جهل هو تمام المعرفة بعينها، وقد نهى سبحانه وتعالى عن كون الإنسان يتكلم فيما لا يعلم، أي يقول في شيء ليس له به علم، والإنسان مسؤول عن سمعه وبصره وقلبه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦] والجاهل هو الشخص الذي يفتقر إلى العلم أو المعرفة أو الفهم في موضوع معين أو عدة مواضيع، في أي من المجالات، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣] وكل شخص يحسب أمرًا ما على خلاف حقيقته، وخلاف ما هو عليه فهو جاهل. والجاهل قد يكون مدركًا لجهله، ومثل هذا يكون لديه الرغبة بتعلم ما لم يكن يعرفه، وقد يكون جاهلا غير معترف بجهله، ومثل هذا فهو رافض لأي شكل من أشكال التعلم، وقد يكون جاهلا يتبنى الجهل منهجًا، وقد يحارب ويمنع الآخرين من التعلم والاستنارة. قال ابن الحاج: الناس أربعة أقسام: عالم وهو يعلم أنه عالم فيتعلم منه، جاهل وهو يعلم أنه جاهل فعلموه، عالم وهو يجهل أنه عالم فنبهوه تنتفعوا به، جاهل وهو يجهل أنه جاهل فاهربوا منه، وللأسف فقد صارت أحوال الكثير منا اليوم من هذا القسم الرابع وهو الجهل والجهل بالجهل. وقد استعاذ سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالله من أن يكون منهم، قال تعالى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧] كما حذر الله عز وجل سيدنا نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ذلك أيضا، قال تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ

ٱلْجَٰهِلِـــينَ﴾ [هود:٤٦] كما قالها سبحانه وتعالى لسيدنا ورسولنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام: ﴿فَـــلَا تَكُـــونَنَّ مِـــنَ ٱلْجَٰهِلِـــينَ﴾ [الأنعام:٣٥] ومن قبل دعا سيدنا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربه قائلا: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِـنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣] وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بالإعراض عنهم، قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩] وهذا إن كان خطابًا لنبيه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه، وقال تعالى: ﴿لَا نَبْـــتَغِى ٱلْجَٰهِلِـــينَ﴾ [القصص:٥٥] وفي بيان لما يجب عليه عباد الله حال مخاطبة الجاهلين لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بظهور الجهل وانتشاره مع اقتراب الساعة، ففي الحديث الصحيح: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل» وقال: «إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل ويرفع فيها العلم» كما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسًا جهالا، ثم قيل لهم: أفتونا في ذلك» وعندما يفتون هؤلاء بجهلهم يتمكن الجهل من الناس ويفشو بينهم، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر» والأصاغر سواء كانوا في السن فهم من ليس عندهم تجربة، والأصاغر في العلم من ليس عندهم علم كامل.

وإذا كان المقصود من هذه الأحاديث الجهل بالأمور الدينية، وإنه آت لا مفر منه ويسبق الساعة، فإن الشاهد للعيان بأن الجهل بات أمرًا شائعًا وشاسعًا وشاملا للأمور الدينية والدنيوية، ومن أسباب ذلك:

أولًا: التطور الدائم في مختلف فروع العلوم، والتقدم التكنولوجي الدؤوب وسيطرته على مختلف نواحي الحياة وإحلاله محل الطاقة البشرية، وما يصاحب ذلك من تجديد متواصل للأفكار وللآراء، بالإضافة لكثرة الأحداث والوقائع وتلاحقها سواء كانت عالمية أو إقليمية أو محلية، وما ينتج عنها من تغير مستمر وسريع للأحوال والأوضاع سواء كانت مجتمعية أو شخصية، مما يجعل من الصعب مواكبة كل هذه التغيرات أولًا بأول، فيتواجد من هو على جهل منها، ولن يبلغ شخص طيلة حياته منتهى المعرفة أو العلم في أي منها، قال تعالى في سورة يوسف [آية:٧٦]: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْـــمٍ عَلِيمٌ﴾ حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدأ وتعلمته البشرية تباعًا من لدن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإليه يعود.

ثانيًا: ما تقوم به بعض مؤسسات السلطة، في كثير من بلدان العالم، خاصة في تلك التي تعد دولًا نامية، باحتكارها للمعرفة وللمعلومة وللخبر ولكافة الحقائق، وبقائها ضمن حلقاتها الضيقة، وإخفائها عن الشعب، وتفننها في وضع الخطط والتكتيكات التي تبقيه في جهل عما تقوم به وعما يدور حوله، وتبقيها هي في معرفة تامة عن جهل الشعب، وترك الشعب للجهل وللجهلة، إلا عما

تريده لهم معرفته، على الرغم من أن حق الشعوب في المعرفة أصبح من بديهيات زماننا الحالي، وقد بينت آيات القرآن الكريم صورة لفرض رأس السلطة رؤيته على أفراد الشعب، قال تعالى مخبرًا عن حال فرعون وهو مخاطب لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] كما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] يفرض فرعون رؤيته على قومه، فلا يرون إلا بعينه، ما يشاء لهم أن يروه، وما يراه هو إنما هو الصلاح والصواب، هكذا يعتقد ويأمر به قومه، وما أعلمكم إلا ما أعلم، أنا وحدي إلهكم، ولو كان ثمة إله غيري لعلمته، وقال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] جاء في التفسير الوسيط: هذا السؤال يحمل في طياته استنكارًا أن يكون هناك إله سواه. وفي تفسير ابن كثير: كانوا يعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون. ونتيجة هذا، قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٩] كما بينت الآيات أيضًا صورة لأخبار عامة الشعب بالمعلومة، قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٦] جاء في تفسير البغوي: المقصود بالناس هنا أهل مصر. لعلي أرجع إلى الناس بتأويل الرؤيا لما فيها ما يخص أحوال معيشتهم خلال سنوات قادمة لعلهم يعلمونها، كما جاء نفس البيان في قول نملة لرفقتها من بني جنسها، عند استشعارها بالخطر الذي يهددهم، قال تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨] جاء في السعدي: نملة منبهة لرفقتها وبني جنسها، فنصحت هذه النملة وأسمعت سائر النمل، أو أنها أخبرت من حولها من النمل ثم سرى الخبر من بعضهن لبعض حتى بلغ الجميع.

ثالثًا: تبوّؤ أنصاف المتعلمين أو من هو دونهم لمواقع القيادة ومراكز المسؤولية في كثير من المصالح وميادين الخدمات العامة، فهم لا يريدون أن يتعلموا، ولا يريدون للمتعلمين أن يزدادوا علمًا ولا تعمقًا في دراستهم ولا دراية ولا إلمامًا بمهام عملهم وما يخصه من قريب أو بعيد، فضلًا أن يكون لهم دور في صناعة القرار وتقرير المصير، وما يصاحب ذلك من استبعاد المتخصصين الملمين بحقيقة الأمور ظاهرها وباطنها، كبيرها وصغيرها، والذين هم على دراية بمجريات الأحداث وتطورها، وذوو باع طويل في العمل بمجال تخصصهم، المدركون لقيمة كل كلمة تخرج من أفواههم، الصادقون في أقوالهم المبتغون لوجه الله، ومع الإبقاء على من يطوعون علمهم وعملهم لخدمة أهداف معينة يزيفون فيها الحقائق ويحرفون فيها الكلم عن مواضعه.

رابعًا: ما يتطلبه البحث عن المعرفة التامة لبعض الأمور والإلمام بها، من مجهود وطاقة في التفتيش والتنقيب والفحص، فإذا كان الباحث من

هـواة اقتنـاء الكتـب، سـيعفيه هـذا مـن الـذهاب للمكتبـات العامـة والمكـوث فيهـا بالأيـام والليـالي لقراءة كتاب، وإن لم يجد فيه ما يبحث عنه ويشبع نهمه، سيقرأ كتابا ثانيًا وثالثًا ورابعًا وهكذا حتى يتحصل على ما يريد، وهو جالس بكل أناقة وملتزم بـآداب الجلـوس في الأمـاكن العامـة، وقـد يتعـرض الباحث للمساءلة وللمضايقات لكونه يخوض فيما هـو غـير مـسموح بمعرفتـه كـما يتهيـأ هكـذا لـبعض المـسؤولين، فـضلًا عـن قـراءة عـشرات الـصحف والمجـلات وسـماع الإذاعـات المختلفـة ومـشاهدة قنوات التلفزيون والاطلاع على وسائل التواصل الاجتماعـــي، لمعرفـــة الآراء والآراء المعارضـــة، ليستشف من بينهم الحقيقة. ويختلف الناس فيما ليس لهم به علم، وضرب القرآن مثلًا لذلك، قال تعالى في سورة الكهف [آية:٢٢] ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ﴾ سيقول فريق من الناس: هم ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقول فريق آخر: هم خمسة سادسهم كلبهم، وتقول جماعة ثالثة: هم سبعة وثامنهم كلبهم، وعقب ذلك قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬﴾ ربي هو الأعلم بعددهم، ما يعلم عددهم إلا قليل من خلقه. والمعرفة لا تنساب مع الماء ولا تتطاير مع نسمات الهواء، والبحث عنها من الأمور الشاقة والتي تحتاج لمعاناة وصبر، لذا تكررت كلمة الصبر في آيات سورة الكهف في الحوار الذي دار بين سيدنا موسى وسيدنا الخضر عليهما السلام سبع مرات، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف:٦٧-٦٩] وقال عز وجل: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٢] وتكررت نفس الكلمات في [آية:٧٥] من نفس السورة، وقال تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨] وقال عز من قائل: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢] فلا علم إلا بالصبر، ومن تعلم تألم، والذي لا يصبر لا يتعلم، ولكن من أسباب حصول الصبر هو إحاطة الإنسان علمًا وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه، كما جاء في الآيات السابقة. والبديل عن عدم الصبر على العلم، وتحمل المشاق من أجله، أما الجهل به، أو الميل لتلقيه من أي بوق كائنًا من كان، أو قراءة مختصر المختصر من أي مصدر، والاقتناص من هنا نص ومن هناك قصة، مكون من هذه القصاصات المختزلة الحقيقة التي يريدها والتي تنسجم مع هواه.

ختامًا فإن القول بأن الجهل سيد الموقف، عبارة ليس فيها من المبالغة شيء، لما تعكسه من واقع ملاحظ في كثير من الحوارات والأحاديث التي تدار بين الناس في أماكن تجمعهم بالمقاهي والنوادي والساحات وأماكن عملهم ولقاءات السمر بينهم، وما يثار بينهم عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ويتناولون فيه أحوال حياتهم ومجتمعاتهم، وتنم جميعها عن الجهل.

# كيف تدير الصلاة حياتنا؟

بقلم: الأستاذ/ أحمد بسام ساعي

لقد رُتّبت مواعيد الصلوات الخمس بحيث تكون مرتكزاتٍ أساسيّةً لتنظيم برنامج حياتنا اليوميّة، تمامًا كما ينظّم رمضان برامجنا السنوية، ماديًّا وروحيًّا.

هذه المواعيد لم يرتّبها لي رئيسي أو مدير مكتبي أو خبيرٌ اجتماعيٌّ أو اقتصاديٌّ أو إداريٌّ أو نفسيّ؛ بل رتّبها لي عالم العلماء وخبير الخبراء وأمين الأمناء، فكيف يمكن أن أسمح لنفسي بأن أخلّ بهذه المواعيد، أو أتأخّر عنها، أو أقترح تغييرها؟

لقد حدّد الله لي، الله نفسه وليس أيّ أحدٍ آخر، خمسة مواعيد كلّ يومٍ لألتقي به وأجلس إليه. فإذا صلّيتُ الصلاة في غير وقتها فأكون قد أخلفتُ موعدي مع الله، ثمّ جئت إليه في وقتٍ آخر من غير موعدٍ ضربه لي؟ تُرى، لو حدث أن تعاملت هكذا مع صديقٍ لي، فماذا تظنّون أن تكون علاقته بي وموقفه منّي بعد ذلك؟ فكيف بالأمر إذن مع الله؟ اللّهم إلا أن يغلبني النوم أو النسيان فسيحدَّد لي تلقائيًّا، حسب القواعد الإلهيّة – النبويّة، موعدٌ آخر يحلّ محلّ الموعد الذي فاتني من غير قصد:

– «من نسيَ صلاةً أو نام عنها فكفّارتُها أن يصلّيَها إذا ذكَرها» [رواه مسلم، عن أنس بن مالك].

وفيما بين مواعيد الصلوات اليوميّة الخمس؛ أعمالٌ حياتيّةٌ كثيرةٌ أخرى لا بدّ لنا من أدائها، فكيف نوفّق بين مواعيد أعمالنا ومواعيد صلواتنا؟ بل كيف يمكن الصلاةَ أن تساعدنا في تنظيم برنامج أعمالنا اليوميّة؟

علينا أولًا أن نتخلّص من دكتاتوريّة التلفاز وفرض توقيته علينا، ثمّ الانتقال إلى مرحلة فرض توقيتنا، نحن، على التلفاز وعلى برنامج الحياة الذي رسمه لنا. يمكن أن نبدأ بإنهاء برنامجنا المسائيّ، التلفازيّ وغير التلفازيّ، مع الحادية عشرة ليلًا، وفي خطوةٍ أخرى مع العاشرة ليلًا أو قبل ذلك، تبعًا لفصول السنة؛ بحيث نستيقظ لصلاة الفجر بكامل وعينا ونشاطنا، لنبدأ بعدها مباشرةً بتنفيذ برنامجنا اليوميّ الجديد، الإلهيّ والصحّي والسليم والمنتج

والمبارك فيه.

البرنامج الجديد يمكن أن يُفتتح بأذكارٍ وأورادٍ يوميّةٍ وتلاوةٍ قرآنيّة صباحيّة، قد تبدأ في الأسابيع، أو ربّما الشهور الأولى، بما لا يزيد عن بضع دقائق، ثمّ تتمدّد شيئًا فشيئًا بحيث تستوعب بوصلةُ دماغنا حركةَ التغيير الطارئة هذه، ونغدو «مبرمَجين» داخليًّا، حسب التوقيت الجديد الذي وضعناه نحن لأنفسنا.

إنّ شهر رمضان؛ وهو شهر إعادة البرمجة لكامل السنة القادمة؛ هو خير فرصة ننتهزها لمثل هذه التغييرات. ما الذي يَحُول الآن بيننا وبين أن نتّخذ لأنفسنا عهدًا مع الله ومع أنفسنا بأن نزيد في قائمة صالحاتنا وعباداتنا وأذكارنا في كلّ رمضان عملًا جديدًا، صغُر أو كبُر، وأن نتخلّى في الوقت نفسه عن عملٍ آخر سيّء، أو لا نفع فيه على الأقلّ، صغُر أو كبُر، وهكذا «خطوةً بعد خطوةٍ» وعامًا بعد عامٍ بعد عام؟

تستطيع أن تبدأ برنامجك الجديد مع بدء رمضان القادم؛ كأن تنوي حفظ آيةٍ كلّ يوم؛ مهما كانت ظروفك ومشاغلك. فإن وجدت ذلك كثيرًا عليك فلتكن آيةً كلّ أسبوع (هذا يعني ٥٢ آيةً سنويًّا وهو مكسبٌ كبير). وتستطيع في الوقت ذاته أن تعاهد نفسك؛ أي أن تعاهد الله طبعًا؛ بأن تلتزم بعد رمضان بغضّ النظر عن الحرمات كلّما لاحت لك، في الطريق أو في غيره، فإن وجدت ذلك كثيرًا عليك؛ فليكن في البداية مرةً كلّ أسبوع، ثمّ مرّتين، ثمّ ثلاث مرّات، حتّى تتوقف تمامًا عن تلك المعصية. وافعل هذا مع أية عادةٍ سيّئةٍ ابتُليت بها: الغيبة، الكذب، العقوق، قطيعة الأرحام، الظلم، الأثرة، إيذاء الجار، الحلف في البيع، عدم الوفاء، الرياء، التكبّر، سوء الظنّ، سوء الخطاب، الإهمال، الكسل، إلخ..

بهذا وحده نستطيع أن نتوجّه إلى عملنا، بعد ذلك، ونحن مشحونون بطاقةٍ جديدةٍ من الغبطة الروحيّة العارمة التي اكتسبناها من شعورنا بفوزنا في هذا التحدّي، وإحساسنا برضا خالقنا العظيم علينا، ممّا لا بدّ أن ينعكس، من ثمّ، على وظائفنا الجسديّة والفكريّة والإبداعيّة والروحيّة، ويتجسّد في نجاحنا وإنجازنا، بثقةٍ وابتهاج، للأعمال التي يفترض أن ننفّذها في ذلك اليوم.

فماذا حول صلوات النهار؟ لا بدّ أن نجعل من هذه الصلوات أيضًا مرتكزاتٍ لنا في تنظيم جدول أعمالنا النهاريّة.

هذه صلاة الظهر. إنّها تقع في منتصف

البرنامج، وهي بهذا ستمنحنا إطارًا هامًّا وتكتيكيًّا نستند إليه في توزيع جدول عملنا، قبل صلاة الظهر، وبعدها.

هل حدث أن قمت بتركيب وحدة أرففٍ خشبيّةٍ للكتب في منزلك؟ ستلاحظ غالبًا أنّ هيكلها، كأيّ وحدةٍ للكتب، له قمّةٌ وقاعٌ ثابتان، وفي وسطه أيضًا رفٌّ آخر ثابتٌ يضمن تماسكه، وبين هذه الثوابت الثلاثة هناك مجموعةٌ من الأرفف غير الثابتة، وقد صُمّمت بحيث تستطيع أن تتحكّم أنت في توزيع أماكنها على الهيكل، ارتفاعًا أو انخفاضًا، ليتلاءم فضاء كلّ رفٍّ مع مقاييس كتبك التي تُعدّها لتكون فوقه أو تحته.

إن صلاة الصبح، في هذه «الوحدة» الزمنيّة التي تسمّى «يومًا» تشكّل قمّة الهيكل الثابتة، وصلاة العشاء تشكّل قاعدته الأرضيّة، وصلاة الظهر هي الرفّ الثابت الذي يقع في وسط الوحدة.

إذن لنوزّع «أرفف» برنامجنا اليوميّ بين ورديّتين رئيسيّتين نهاريّتين: أعمال ما قبل الظهر، وأعمال ما بعده، يتوسّطهما نقطة الارتكاز الثابتة: صلاة الظهر.

أمّا صلاة العصر فيمكن أن تتحوّل في ا لنهار الصيفيّ الطويل إلى رفٍّ ثابتٍ آخر يفصل ما بين ورديّة أعمالنا النهاريّة الثانية، وورديّة أعمالنا الصيفيّة الإضافيّة الثالثة، إن كان هناك المزيد من الأعمال في هذا النهار الطويل، كارتباطاتٍ إضافيّةٍ خارج العمل مثلًا، أو مواعيد للقاء أصدقائنا، وأخرى لزياراتنا العائليّة والاجتماعيّة، وأخرى لنشاطاتنا الخيريّة، وغيرها.

إذا كان ليل الشتاء الطويل مستودعًا للمزيد من الصلوات والقيام، فليكن نهار الصيف الطويل مستودعًا للمزيد من العمل والإنجاز وخدمة الآخرين.

لتكن المواقيت التي وضعها تعالى لصلاتنا ﴿كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ وهيكلًا عامًّا لكلّ برامجنا اليوميّة، ومدخلًا للنجاح ولخدمة أنفسنا وخدمة الآخرين معًا؛ بل ليكن في وضوئنا المتكرّر، ثمّ في «أَخْذِ زينتِنا» عند كلّ مسجدٍ خمس مرّاتٍ كلّ يوم، منهجًا لنا في ا لمحافظة على نظافتنا وأناقتنا وهندامنا طوال اليوم.

تُرى، هل يستطيع من كان عليه أن يتوضّأ لكلّ صلاة، وأن يأخذ زينته خمس مرّاتٍ كلّ يوم ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، أن يتخلّى عن نظافته وحسن مظهره بين هذه الأوقات حتّى لو أراد ذلك؟

* * *

# قصة الإسراء والمعراج كما تحدث الرسول ﷺ

بقلم: د. أحمد عمر هاشم(*)

مــن قــصص الــسنة النبويــة، قــصة الإسراء والمعراج، وقد تحدث عنها القرآن الكريم. وفصلتها السنة المطهرة، موضحة ما اشتملت عليه من آيات وعـبر، وكاشـفة مـا أفـاءه الله تعـالى عـلى المحـبط الإسلامي من عطاء غامر، ورحمة واسعة.

قال الإمام البخاري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: حدثنا يحيى ابـن بكـير قـال حـدثنا الليـث، عـن يـونس، عـن ابـن شهاب، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فرج عن سقف بيتي وأنـا بمكـة، فنـزل جبريـل. ففـرج صـدري، ثـم غسله بـماء زمـزم ثـم جـاء بطست مـن ذهـب ممتلـئ حكمة وإيمانًا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيـدي، فعـرج بي إلى الـسماء الـدنيا، فلـما جئـت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح.

قال: من هذا؟

قال: جبريل.

قال: هل معك أحد؟

قال: نعم، معي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: أرسل إليه؟

قال: نعم.

فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ يساره بكى.

فقال: مرحبًا بالنبي الصالح، والابن الصالح.

قلت لجبريل: من هذا؟

قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التـي عـن شـماله أهـل النـار، فـإذا نظـر عـن يمينـه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى حتى عرج بي إلى السماء الثانية.

فقال لخازنها: افتح.

فقال له خازنها مثل ما قال الأول، ففتح.

قـال أنـس: فـذكر أنـه وجـد في ا لـسماوات آدم، وإدريـس، موسـى، وعيـسى، وإبـراهيم – صـلوات الله عليهم – ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

وجـد آدم في الـسماء الـدنيا، وإبـراهيم في الـسماء السادسة.

قال أنس: فلما مر جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

قلت: من هذا؟

قال: هذا إدريس.

ثم مررت بموسى فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

قلت: من هذا؟

قال: هذا موسى.

ثم مررت بعيسى فقال مرحبًا: بالأخ الصالح والنبي الصالح.

قلت: من هذا؟

قال: هذا عيسى.

ثـم مـررت بـإبراهيم فقـال: مرحبًـا بـالنبي الصالح والابن الصالح.

قلت: من هذا؟

قال: هذا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قـال ابـن شـهاب: فـأخبرني ابـن حـزم أن ابـن عباس، وأبا حبة الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كانا يقولان: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام».

قال ابن حزم وأنس بن مالك قال النبي ﷺ: «ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى.

فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟

قلت: فرض خمسين صلاة.

قـال موسـى: فـارجع إلى ربـك، فـإن أمتـك لا تطيق ذلك. فراجعت فوضع شطرها. فرجعت إلى موسى. قلت: وضع شطرها.

قال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق.

فراجعـت فوضـع فقـال: هـن خمـس وهـن خمسون، لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى. فقال: راجع ربك.

فقلت: استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبايل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك.

في هـذه القـصة الـصحيحة مـن قـصص الـسنة الشريفة، بيان لمعجزة الإسراء والمعراج التي خص الله تعالى بها نبيه ﷺ، ليريه من آياته، ما تقر به عينه، فيشهد ما لم يشهده أحد، ولتتضح منزلته صلوات الله وسلامه عليه. قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (سورة الإسراء:١).

**لماذا فرضت الصلاة.. في هذه الليلة؟**

وفي معراجه الشريف، صلوات الله وسلامه

عليه، أطلعه رب العزة على كثير من الآيات وأوحى إليه ما أوحى، قال سبحانه: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ (سورة النجم: ١-١١).

وقد سبق هذه الرحلة إعداد إلهي لنفس الرسول ﷺ، حيث جاءه جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وشق صدره الشريف، ثم غسله بماء زمزم، كما ورد في الحديث الصحيح، ثم أخذه بيده فعرج به إلى السماوات، وارتقى من سماء إلى سماء وهكذا إلى أن وصل إلى هذا الموضع الذي تحدث عنه في قوله – كما روى البخاري – ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صرير الأقلام» ثم قال: «ففرض الله على أمتي خمسين صلاة»، وظل يخفف الله منها إلى أن صارت خمسًا.

قال الحافظ ابن حجر: والحكمة في وقوع فرض الصلاة ليلة المعراج إنه لما قدس ظاهرًا وباطنًا حين غسل بماء زمزم بالإيمان والحكمة، ومن شأن الصلاة أن يتقدمها الطهور ناسب ذلك أن تفرض الصلاة في تلك الحالة، وليظهر شرفه في الملأ الأعلى، ويصلي بمن سكنه من الأنبياء وبالملائكة، ولينا جي ربه. ومن ثم كان المصلي يناجي ربه جل وعلا.

ويتضح لنا كيف رسمت هذه المعجزة منهجًا مشرقا للحياة الإسلامية، وكيف طالعت دنيا الناس بقدرة إلهية عظيمة، سبقت تقدم العلم الحديث واكتشافاته، وبها تمحصت قلوب. وتبين المخلص للإسلام من غيره، كما كشفت عن صور ونماذج لمن اعتدل بفطرته، ولمن حاد عنها، ومن بين تلك الأمور ما ألقته الرحلة من أضواء على فريضة من أهم الفرائض وهي الصلاة.

وبهذا يتبين لنا سمو هذه الفريضة، ومنزلتها العالية، فمنزلة الصلاة من الدين كمنزلة الرأس من الجسد. فلا دين لمن لا صلاة له، فهي الفاصل بين المسلم والكافر، وهي أول ما يسأل عنه العبد ويحاسب عليه يوم القيامة.. ولها آثارها الكبيرة في حياة الإنسان، وسلوكه، إذ تكفه عن الفحشاء والمنكر، وتكفر خطاياه، ومع كل هذا فهي نظافة للبدن والثوب والمكان، ورياضة للجسم والروح والعقل، فهي إذن قوة روحية وبدنية وخلقية.

أليست بهذا جديرة بأن تفرض من فوق سبع سماوات؟

بلى.. إنها لجديرة أن تفرض في تلك الليلة المباركة فهي عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، إنها معراج إلى الله. بها

يعـبر المـؤمن الحـدود الـدنيا ويستـشرف الأجـواء الإلهية المشرفة، ويجتاز طبقات البعد، ليقترب من ربه كما قال سبحانه: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ (سورة العلق:١٩).

هـذا وقـد ورد أن الحكمـة في تخـصيص فـرض الـصلاة بليلـة الإسراء أنـه ﷺ لمـا عـرج بـه رأى في تلك الليلة تَعَبُّدَ الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله له ولأمته تلك العبادات كلها في كل ركعة يصليها العبد، بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص. أشار إلى ذلك ابن أبي جمرة وقال: وفي اختصاص فرضيتها بليلة الإسراء إشارة إلى عظيم بيانها، ولذلك اختص فرضها بكونه بغير واسطة.

**مشاهد الليلة العظيمة**

ولنلق الضوء، في هذا المبحث على المشاهد والآيات التي رآها رسول الله ﷺ، في ليلة الإسراء والمعراج.

حيث رأى نماذج للطائعين، وأخرى للعاصين، ورأى نماذج لأنواع من الثواب، وأخرى لأنواع من العقاب: كرؤيته للمجاهدين، وكيف يضاعف الله لهم الثواب، ورؤيته لعقوبة من تثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

كـما رأى ﷺ عقوبـة الـذين لا يـؤدون زكـاة أموالهم، والذين يرتكبون فاحشة الزنا، ورؤيته لثقل تحمـل الأمانـات، وعقوبـة خطبـاء الفتنـة الـذين يروجـون للباطـل، والـذين يتكلمـون ويكبـون عـلى مناخرهم حصائد ألسنتهم.

ثـم رؤيته للجنة والنار وغير ذلك من الأمور الـسمعية، التـي كـان طريـق الإخبـار بهـا هـو طريـق السماع فحسب، فلم يحظ نبي من الأنبياء برؤية ذلك إلا رسول الله ﷺ.

فقد أطلعه رب العزة سبحانه وتعالى على تلك الأمـور الـسمعية، ليكـون حديثـه عنهـا حـديث مـن رأى وسـمع، فهـو خـاتم الأنبيـاء والرسـل، ورسـالته خالـدة إلى أن تقـوم الـساعة، فناسـب أن يخـصه الله تعـالى بتلـك الخـصوصية في إطلاعـه عـلى الأمـور الـسمعية التـي لم يطلـع عليهـا أحـد قبلـه، وحتـى لا يحزن ولا يضيق من إيذاء القوم له. فليس جحودهم عـن غـضب مـن ربـه، وإنـما لأنـه مـن أولي العـزم مـن الرسل، ولـذا فقـد احتفـت بـه الـسماوات في ملكوتهـا العظيم.

ففيما رواه الطبراني والبزار: أنه ﷺ مر على قوم يزرعـون ويحـصدون في يـوم كلـما حـصدوا عـاد كـما كان، فقال لجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ما هذا؟

قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف الحسنة إلى سبع مئة ضعف وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين.

وفي هــذا المــشهد توضــيح لمكانــة الجهــاد

والمجاهـدين، وفي هـذا النمـوذج المحسوس لمثوبـة الجهـاد تجيش في نفوسـنا عواطـف الإيـمان لتـدفعنا لتطهـير القـدس الـشريف واسـترداده، وتطهـير كـل بقعـة في الـوطن الإسلامي تغتصب، أو يقـع عـدوان عـلى أهلهـا ظلـمًا وعـدوانًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، ولنستجب لنداء القرآن الكريم، فندفع الظلم عن المظلومين، ونكافح من أجل إعادة الحق إلى أصحابه الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ (سورة البقرة:١٩١).

وقد أوضح الرسول ﷺ مكانة مقدساتنا: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى».

وفيما رواه أحمد وأبوداود، من طريق عبد الرحمن بن جبير عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم».

وذلك لأن للأعراض حرمتها التي صانها الإسلام وحذر من الوقوع فيها حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة الحجرات:١٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا».

في هذه الليلة أيضًا يرى النبي ﷺ قومًا ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هؤلاء الذين تثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

ثم أتى ﷺ على قوم على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام، يأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم، فقال: «ما هؤلاء؟» قال جبريل: هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، وما ظلمهم الله، وما ربك بظلام للعبيد.

ثم أتى ﷺ على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر، ولحم نيء خبيث، فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث ويدعون النضيج، فقال: «ما هؤلاء يا جبريل؟» قال جبريل: هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالًا طيبا، فتأتي رجلا خبيثا فتبيت عنده حتى تصبح.

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة

لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هذا الرجل من أمتك تكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها، وهو يريد أن يحمل عليها.

ثم أتى ﷺ على قوم تُقرَضُ ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء. قال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هؤلاء خطباء الفتنة.

ثم أتى ﷺ على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل ا لثور يريد أن يرجع من حيث خرج، فلا يستطيع، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة يندم عليها، فلا يستطيع أن يردها.

ثم أتى ﷺ على واد توجد فيه ريح طيبة باردة وريح مسك وسمع صوتًا، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هذا صوت الجنة تقول: رب آتني بما وعدتني، فقد كثرت غرفي وإستبرقي وحريري وسندسي وعبقريي ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي وأباريقي ومراكبي وعسلي ومائي ولبني وخمري، فآتني بما وعدتني.

قال: لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحًا ولم يشرك بي شيئًا، ولم يتخذ من دون الله أندادًا، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني فقد أعطيته، ومن أقرضني جازيته، ومن توكل علي كفيته.. إنني أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد. قد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين.

قالت: فقد رضيت.

ثم أتى على واد فسمع صوتًا منكرا ووجد ريحًا منتنةً، فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: هذا صوت جهنم تقول: رب آتني بما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وجحيمي وضريعي وغساقي وعذابي وقد بعد قعري، واشتد حري فآتني بما وعدتني.

قال: لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب.

قالت: قد رضيت، فسار حتى أتى بيت المقدس».

وهكذا أطلع الله رسوله صلوات الله وسلامه عليه على هذه الآيات وعلى الأمور السمعية، بيانًا شافيًا للأمة، لتتجه دائمًا إلى طاعات الله، وتتبعد عن كل مخالفة تغضب الله تعالى.

وهكذا رسمت رحلة الإسراء والمعراج منهج حياة متكاملة، وكانت راحة وسلوانًا لرسول الله ﷺ، كما كانت امتحانًا للناس كشف عن الصادق في إيمانه، والمخلص من غيره.

* * *

# وقفات وتأملات

## في الآية القرآنية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾

### في ضوء ما أفاده حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله

جمع، ترتيب وتعريب بقلم: **الأستاذ محمد رضي الرحمن القاسمي**

**المدخل**

إن أيسر طريق إلى الله عز وجل هو ألا يقنع العبد ولا يرضى عن حاله الناقصة؛ بل عليه أن يسعى لتحصيل الكمال في الدين. وطريق ذلك هو إكمال الأعمال، بألا يُقصِّر ولا يتكاسل عن أداء الفرائض والواجبات، ولا يرتكب المحرمات. ولعلاج ما يعترض النفس من مقاومة في إكمال الأعمال، يجب اختيار صحبة الصالحين والكامِلين.

**المقصود والطريق الموصلة إليه**

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾(التوبة:١١٩)، هذه آية موجزة قد بيَّن الله تعالى فيها مقصودًا، وعيَّن معه الطريق الموصِل إليه. فإذا تبيّن المقصود وتعيّن الطريق وكان سهلًا، فحينئذٍ يكون الوصول إليه سهلا وميسورًا. أما الفشل فهو إما لعدم تعيين المقصود، أو لعدم معرفة الطريق الصحيح، أو لصعوبة الطريق بحيث لا يقدر المرء على سلوكه. ومن فشل بعد كل ذلك، فإنما فشله يعود إلى كسله وتهاونه فقط.

وهذا الفاشل المتكاسل ممن يتوهم أن المقاصد تُنال بالأماني، وهذا خطأ جسيم. فلو تمنى أحدهم أن يملأ بيته بالحبوب، ولم يحرث أرضًا، ولم يشترِ شيئًا، ولم يسعَ في أي سبيل، فهل تملأ أمنيته بيته؟ لا؛ لأن سنة الله في هذا العالم لا تجري على الأمنيات. نعم، قد يقع ذلك خرقًا للعادة، لحكمة إلهية أو معجزة نادرة؛ ولكن النادر لا يُعوَّل عليه؛ لأن النادر كالمعدوم. فالحياة لا تُبنى على الاستثناء؛ بل على القانون الإلهي الثابت: العمل ثم النتيجة.

للآية التي بين أيدينا، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، جزآن:(١) «ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ»، (٢) «وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ». وهذا من إعجاز القرآن، حيث جَمَعَ بحر العلوم والمعاني في جملتين. فَسَتَرى -إن شاء الله- بعد معرفة التفاصيل أن الله تعالى قد ضمّن هاتين الجملتين معنىً بالغ الأهمية.

يمكن أن يكون لتفسير جمل القرآن عناوين

مختلفة. لذلك، من الممكن أن يكون مفسر ما قد اختار عنوانًا آخر في تفسير هذه الآية، ولكن ذلك الاختلاف يكون في العنوان فقط. أما المعنى فيكون واحدًا. والذي فَهمتُه من معنى هذه الآية هو أن في «اتَّقُوا اللَّهَ» ذكرًا للمقصود، وفي «وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» ذكرًا لطريق ذلك المقصود.

إن الذين يتدبرون القرآن الكريم ويتأملون في معانيه، يدركون تمامًا أن الله تعالى كثيرًا ما يذكر في كتابه العزيز المقاصدَ مقرونةً بوسائل مُوصِلة إليها، وهذا منتهى شفقته ورحمته، إذ لا يأمر عباده بأمر ويتركهم في حيرة من أمرهم؛ بل يبيّن لهم الطريق لتحقيق ذلك المقصود ويقول: «افعلوا كذا، واتبعوا هذا السبيل». وبالنظر إلى هذه العادة الإلهية، أستطيع القول بكل يقين: إن هذه الآية الكريمة أيضًا تتبع نفس النهج: فـ«اتَّقُوا اللَّهَ» هو بيان للمقصد، و«كُوْنُوا مَعَ الصَّادِقِيْنَ» هو بيان لطريقة تحقيق ذلك المقصد. أو بعبارة أخرى، فإن الله تعالى يأمرنا بتحقيق الكمال في الدين، ويبين أن صحبة الكاملين هي طريق تحصيله. وسأوضح لاحقًا أن تفسير التقوى هو عين الكمال في الدين، ولكن الآن أريد أن أبيِّنَ أن تحصيل الكمال في الدين هو المطلوب والمقصود.

**السعي نحو الكمال**

يجب أن نعلم أن المقاصد دائمًا تُطلب على وجه الكمال. لا يرضى أحد بالحالة الناقصة. في التجارة مثلًا، عندما يَتَّجِر الإنسان، يطلب فيها أيضًا الكمالُ. ولا أحد يكتفي بالمليون أو المليونين؛ بل يسعى دائمًا للمزيد. وإذا حصل أحدهم على أرباح تفوق حاجته، لا يترك السعي؛ بل يبدأ مشاريع جديدة. فمثلًا، من لديه متجر للسجاد، وبعد أن يزيد رأس ماله، يفتح متجرًا للملابس، ثم للأحذية، ثم يشتري عقارات ليؤجرها. وهكذا، يستمر في التوسع دون توقف، فـ«لا ينتهي أرب إلا إلى أرب»، إلى أن يوقفه الموت، فهو وحده ما يقطع عليه هذا السعي.

ربما يمكنك أن تُرِيَني شخصًا حصل على قدر من المال ثم اكتفى، وتوقف عن السعي، ولكن أولًا، هذا نادر جدًا، قد يكون هناك رجل واحد كهذا في الملايين. والنادر كالمعدوم. وإذا أريتَني رجلًا واحدًا كهذا في الملايين، فإن ذلك لا ينقض كلامي، ولا يقدح في بياني؛ لأن القواعد تُبنى على الأكثر، وحال الأكثر هو ما ذُكر.

وإن وُجد شخص كهذا، فإنه غالبًا ما يكون من أهل الدين لا من أهل الدنيا، ونحن نتكلم الآن عن حال أهل الدنيا. أما إن كان من أهل الدنيا، فإني أجيبك بجوابين:

أحدهما عابر: وهو أن هذا الشخص يرى أن ما بلغه هو غاية الكمال، فلا يرى ما هو أعلى منه، فيكون أيضًا طالبًا للكمال بحسب رؤيته، لا أنه رضي بالحالة الناقصة.

أما الجواب الحقيقي: فهو أن هذا الشخص وإن ترك السعي الظاهر، وأنهى التقدم في صورته، إلا أنه لا يزال في مسار التطور، ولا يزال يتقدم معنًى؛ لأن هذا الشخص عاقل في أمور الدنيا وليس فيها جاهلًا. لقد فهم روح الدنيا بأن المقصود من أسباب المعاش هو سكون القلب وراحته، والانشغال الدائم بأسباب المعاش لا يوفر راحة القلب وسكونه. يظل القلب مضطربًا ومشغولًا، ولذلك بعد أن حصل على رأس مال معقول، أغلق باب التقدم في صورته، لكنه في الحقيقة لا يزال يتقدم. فقد انتقل من طلب الأسباب إلى طلب النتائج والمقصود. فهو الآن يسعى لراحة النفس وطمأنينة القلب، لا لزيادة المال فقط. ومن أجل تحقيق تلك الطمأنينة، قرر أن يكتفي بما حصل عليه من مال وراحة، دون الدخول في مزيد من مشاق الدنيا.

فالخلاصة أن الإنسان في أمور الدنيا دائم السعي نحو الكمال، ولا يكتفي بما حصل عليه، ولا يقف عند حد؛ بل يطلب المزيد، وإن توقف، فلا يكون ذلك عند حالة ناقصة؛ بل بعد بلوغ حد الكمال. وحتى حين يرضى ظاهريًا، فإن حقيقة السعي لا تزال قائمة في قلبه.

**التديُّن والقناعة**

من أعجب ما يُبتلى به كثير من الناس أنهم يقنعون في الدين بما لا يُقنع به في الدنيا! فالذي لا يرضى لنفسه تجارة خاسرة، أو منزلًا صغيرًا، أو ربحًا محدودًا، تراه يرضى في دينه بأدنى القليل. يصلي صلوات غير مكتملة الخشوع، وربما متقطعة، ثم يرى نفسه من أهل الصلاح، ويحسب أن الجنة مضمونة له. يؤدي الزكاة من رأس ماله مرة في العام، أو يؤديها دون تحرٍ أو صدق، ثم يظن أنه قد برئ من حقوق العباد، ونال رضا الرحمن. فإذا حجّ، امتلأ قلبه عجَبًا بنفسه، وكأنه بلغ مرتبة الأولياء.

وهذا القصور في الهمة، والرضا في الدين بأدنى القليل، والتوهم بأن التدين ينحصر في بعض الشعائر مِن أعظم ما ابتُليت به الأمة. ولا يقتصر سوءُ الفهم هذا على العوام؛ بل إنك تجده في بعض المنتسبين إلى العلم، وفي بعض السالكين للطريق، ممن توهموا حصرَ التدين في بعض الشعائر فقط. بينما الواقع أن التدين الكامل لا يتحقق إلا بالالتزام الشامل، بحيث تتحول جميع جوانب الحياة إلى ميادين لطاعة الله تعالى.

ولذا، فإن القناعة في الدين بحالة ناقصة، ليست قناعة؛ بل غفلة مُهلِكة. ومَن قَبِل بذلك، فقد جنى على نفسه. إن كان في الدنيا، لم يرضَ بأقل من الكمال، فكيف يرضى في أمر الآخرة بما هو دون ذلك؟

والأدهى أن من يسعى إلى التدين الكامل متمسكًا بالعقائد الصحيحة الصافية، ومراعيًا حقوق الله وحقوق عباده، ومتحلِّيًا بأخلاق

الإسـلام الفاضـلة، ومُزكِّيـًا نفـسَه مـن الأمـراض الباطنـة، ويُلـحّ في طلـب كـمال التقـوى، يُوصـم في المجتمـع بالتـشدد وبالغبـاء، ويُنظـر إليـه عـلى أنـه «متشدد أو مبالغ، أو متعمق؛ بل غبيٌّ قليلُ الفهم». والعياذ بالله.

**الإعانة الإلهية**

لِيعلم كل مسلم أن طريق الكمال في الدين لا يُقطع إلا بعون من الله، ولا يبلغ منتهاه إلا بتوفيق من لدنه. غير أن كثيرًا من الناس يتوهمون أن هذه الإعانة الربانية لا تُمنح إلا لمن بلغ مراتب عالية من الصلاح، فيقعدون عن السعي، ويظنون أن بداية الطريق مستحيلة، فيقول قائلهم: «كيف أستقيم؟ هذا فوق طاقتي! كيف ألتزم الدين؟ هذا صعب جدًا!».

لكن هذا الظن وهمٌ من أوهام النفس؛ بل حيلة من حيلها ليبقى الإنسان في دائرة التراخي. والحق أن الله جلّ وعلا يعين عبده منذ اللحظة الأولى، ومن أول خطوة؛ بل يعينه في لحظة العزم، قبل أن يعمل. فإذا صدق العبد النية، وتوجه بقلبه، فإن الله يفتح له من أبواب الهداية والكمال في الدين ما يعجز العقل عن تصوره. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾(العنكبوت:٦٩)، وقال أيضًا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ (الطلاق:٢). تأمل: الله تعالى لا يطلب من العبد أن يبلغ القمة أولًا؛ بل يطلب منه المجاهدة، والنية الصادقة، والإقبال، ويضمن له الهداية والمعونة.

**فقدان الفكر وهموم الترقي الديني**

رغم أن طريق الدين ميسّر، ومعونة الله مضمونة، تجد غالبية الناس في حالة عجيبة من القناعة العاجزة. لا يفكرون في الترقي، ولا يخطر ببالهم أن الدين درجات، وأن للإيمان مراتب، وأن ما هم عليه لا يعدو أن يكون البداية فقط. وكلٌّ منهم قد اكتفى بما حصل عليه، كأن الجنة ضُمنت، أو أن الخاتمة قد كُتبت على صلاح!

ولا نعني بذلك العوام وحدهم؛ بل حتى الخواص – أهل العلم، والعبادة – قد أصابتهم هذه الغفلة. فمَن انشغل بالتدريس، يكتفي بتعليمه، ويظن نفسه وليًّا صالحًا، لأنه مشغول بـ«قال الله وقال الرسول». ومن انشغل بالذكر، ظن أن ذلك وحده يكفيه، ولا يرى حاجة لإصلاح الأخلاق أو مراعاة أحكام المعاشرة والمعاملة. وكأنّ هذه الأمور ليست من الدين!

إلا أن التساؤل الذي يفرض نفسه هو: إذا لم تكن هذه من الدين، فَلِمَن شُرعت أحكامه؟ وإذا لم نُطالَب نحن بتحقيقها، فهل سيأتي قومٌ آخرون يفعلون؟ وإذا كانت التقوى لا تشمل حياة المسلم كلها، فما معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ (البقرة:٢٠٨)؟ وإذا لم نطبق فروع التقوى الفقهية فهل ذُكِرت تلك المسائل الفقهية عبثًا؟

وإن كان خسران أهل الدنيا في تركهم للكمال في الدين وقناعتهم بالقليل منه خسرانًا عظيمًا، فإن خسرانَ أهل العلم أعظم وأخطر؛ لأن أهل الدنيا إذا حصلوا على قليل من الدين واقتنعوا به فقد نالوا لذة الدنيا وراحتها، أما أهل العلم إذا رضوا لأنفسهم بالقليل من الدين، فإنهم – كما قيل: ضاع علمهم، ولم تنفعه منزلتهم- لم ينالوا من الدنيا شيئًا كثيرا، ولا من الآخرة نورًا وفوزًا عظيما، فهم في تعب هنا وهناك. لا قصر يسكنهم، ولا مال يكفيهم، ولا خدمة تُريحهم، ولا أعمال تُنجيهم. فلا أدري لماذا يرضى أهل العلم ويقنعون بالقليل من الدين؟، ولماذا بعد ترك الدنيا لا يفكرون في الكمال في الدين؟

**حال الصحابة الكرام (رضي الله عنهم)**

أما حال الصحابة رضي الله عنهم، فكانت مختلفة تمامًا. كان الصحابة رضي الله عنهم أشد الناس حرصًا على الأعمال الصالحة، وثوابها، وعلى ما يرفع درجاتهم، وينالون به رضا الله عز وجل.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: تسبحون، وتكبرون، وتحمدون، دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة. قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ.(رواه مسلم، الرقم:٥٩٥)

كان الأغنياء من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع ما بين أيديهم من مال وخير، لم يكتفوا؛ بل سارعوا إلى ذكر جديد علّهم يسبقون. لم يقولوا: نحن نُصلي ونزكّي وننفق، فما حاجتنا لمزيد؟ لا! بل رأوا أن كل وسيلة للزيادة في الأجر فرصة لا تُفوت. وكان هذا حال أغنياء الصحابة رضوان الله عليهم؛ إذ كانوا لا يزالون يسعون إلى التقدّم في مراتب الدين، فكلما بلغهم عملٌ صالحٌ سارعوا إليه وتسابقوا، حتى صار من العسير على الفقراء منهم أن يسبقوهم في ميادين الفضل والقرب.

وكانت عندهم أموال كثيرة، لكن قلوبهم لم تتعلّق بها لحظة، فهؤلاء هم الأغنياء الذين دار بسببهم خلاف الصوفية: أيهما أفضل، الصبر أم الشكر؟ إذ المقصود بالشاكرين عندهم هم أمثال الصحابة رضوان الله عليهم، لا أمثالنا نحن الذين يأكلون من نعم الله ويزدادون بها جرأة على معصيته. ولو اطّلع أولئك الصوفية على أغنياء

زماننا، لمالوا إلى أن الصابر خيرٌ من الشاكر إلا من رحم الله.

وها نحن اليوم، لا يُعَدّ التقدّم على أغنياء زماننا في شؤون الدين أمرًا صعبًا، ومع ذلك، فالعجيب أننا لا نغار! فنحن دونهم في أمور الدنيا، فهل نرضى أن نكون دونهم في أمور الدين أيضًا؟!

وخاصة أهل العلم، فإن غيرتهم في هذا الباب أولى وأحرى، فكما لا يملّ أهل الدنيا السعي في الرقي الدنيوي، ينبغي لأهل الإيمان أن لا يملّوا السعي إلى الكمال في الدين. وقد دلّنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة التي هي نحن فيها على طريقٍ يسيرٍ، لمن أراد الفوز والتقدّم في ميادين الآخرة.

**مفهوم التقوى**

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(التوبة:١١٩)، يا من آمنتم، خذوا لأنفسكم زادًا من التقوى، وكونوا في رفقة الصادقين.

وفي هذه الآية، جاء الأمر بالتقوى أولًا (وهو المقصود كما سبق)، وقد ثبت أعلاه أن الكمال مطلوب في كل مقصود. والآن يجب إثبات أن التقوى هي كمال الدين أم لا؟

وبالتأمل يتجلّى هذا المعنى بوضوح في النصوص الشرعية؛ فقد تكرر الأمر بالتقوى، وورد بيان فضلها في آيات كثيرة من القرآن، حتى قلّ أن نجد فضيلة أُكِّدت مثلما أُكِّدت التقوى، مما يدل على رفعة مكانتها في شريعة الإسلام.

أما من حيث الحقيقة، فإن استعمال التقوى في الخطاب الشرعي يأتي غالبًا على معنيين: أحدهما الخوف، والآخر الاجتناب، (أي الاحتراز والابتعاد). وبتأمل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، يتبيّن أن المعنى المقصود أصالةً بالتقوى هو الاجتناب، أي الابتعاد عن المعاصي (المعنى الثاني)، أما الخوف، فهو الدافع الباطني والباعث القلبي الذي يثمر هذا الاجتناب. فمتى تمكّن الخوف من القلب، دفع صاحبه إلى الحذر والبعد، إذ طبيعة الإنسان أن يفرّ مما يخشاه.

وقد استُعملت «التقوى» بمعنى الخوف في آية: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ (آل عمران:٢٨)، أي تخافوهم. وأما الاستعمال الغالب في النصوص الشرعية، فهو بمعنى الاجتناب والاحتراز. ومن أبرز شواهده: الحديث النبوي الشريف: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» (أخرجه البخاري في صحيحه، الرقم:٣٥٩٥، ومسلم في صحيحه، الرقم:١٠١٦)، أي اجتنبوا عذاب النار ولو بأدنى وسيلة من وسائل النجاة، كالتصدق بنصف تمرة. فالمعنى هنا هو الاجتناب والاحتراز. ولا يصح هنا معنى الخوف.

فالاستعمال وارد للفظ التقوى بالمعنيين، غير أن المقصود الأصيل هو الاجتناب والاحتراز من المعاصي، والخوف على الإطلاق ليس مقصودًا لذاته؛ بل هو وسيلة تؤدي إلى ذلك الاجتناب أي

الاحـتراز مـن المعـاصي. ودليـل ذلـك مـا ورد في الحـديث، أن النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كـان يقـول في دعائه: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ». (جامع الترمذي، أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الرقم:٣٥٠٢) (أي نسألك من خشيتك ما يكون حاجزًا بيننا وبين معاصيك). فمن هذا يُعلم أن الخوف ليس مطلوبًا بإطلاقه؛ إذ لو كان مقصودًا لذاته، لكان كل درجاته مطلوبة. ولا تكون أي درجة منها غيرَ مقصودة. لكن النبي ﷺ قيد المطلوب منه بكونه حاجزًا عن المعصية، فدلّ ذلك على أن الخوف المحمود هو ما كان باعثًا على الطاعة وكافًّا عن الذنب، لا ما جاوز هذا الحد حتى صار مُقعِدًا أو مُثبِّطًا.

وما أوجزه النبي ﷺ في هذا الحديث من بيان لحقيقة الخوف، لا يدركه السالكون في طريق الله إلا بعد سنوات من المجاهدة. قد يظن الإنسان أن الخوف من الله تعالى، لما فيه من الخير، كلما اشتد زاد فضلُه، غير أن التجربة والملاحظة تدلّان على أن تجاوزَ الحدّ في هذا الخوف قد يفضي إلى آثار سلبية وأضرار نفسية وسلوكية:

أولًا: قد يُضعف الخوف الشديدُ صحةَ الإنسان، ويُشغله بالحزن والهمّ الدائم، مما يعيقه عن أداء الفرائض والقيام بالأعمال الصالحة.

ثانيًا: يُثبّط هِمَمَ الآخرين، فيتوهمون أن رضا الله أمرٌ عسير المنال، فيزهدون في السعي إليه.

ثالثًا: وقد يُفضي إلى اليأس من رحمة الله، وهو من أعظم المهالك؛ بل من مظانّ الكفر – نعوذ بالله من ذلك-. فإذا طغى الخوف، وقع الإنسان في القنوط، وظن أن لا نجاة له، فترك العمل بالكلية.

ومن هنا، يُدرك السالكون في طريق الله أن الخوف المحمود له حدّ، وأن المبالغة فيه مضرّة، وأن كل درجة من الخوف ليست بمطلوبة، وقد نبه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى هذه الحقيقة بكلمة موجزة بليغة.

ولما ثبت أن المقصود الأصلي من التقوى هو اجتناب المعاصي، فإن تحقق هذا الاجتناب هو بعينه تحقيق كمال الدين وتمامه. إذ إن ترك المعاصي يتضمن أداء الفرائض والواجبات، والابتعاد عن المحرمات، ولا يخرج عنه أيُّ مقصودٍ شرعي؛ بل هو جامع لكل نواهي الشرع وأوامره. فمثلًا، الصلاة واجبة، وتركها معصية. والزكاة واجبة، وتركها معصية. فحين يجتنب الإنسان المعصية، يكون قد امتثل الأمر، وترك النهي، وهذا هو تمام الدين وكماله أي أداء الواجبات، وترك المحرمات. وعليه، ثبت -جليًّا- أن التقوى بهذا الاعتبار تمثل كمال الدين في صورته العملية والتطبيقية.

ودليل آخر من الأدلة على أن التقوى هي كمال الدين وتمامه: قول النبي ﷺ: «التَّقْوَى هاهُنا. ويُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ» (أخرجه مسلم في صحيحه، الرقم:٢٥٦٤)، أي أن محلها وموضعها

الأصلي هو القلب. وهذه هي المقدمة الأولى. أما المقدمة الثانية: فهي ما ورد في الحديث الشريف: «أَلَا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وهِي القَلْبُ». (أخرجه البخاري في صحيحه، الرقم:٥٢) فدل الحديث على أن صلاح القلب هو صلاح كامل.

فمن مجموع الحديثين يتبين أن صلاح القلب أساس صلاح الجسد كلّه، وأن التقوى – لكونها متعلّقة بالقلب – هي أصل هذا الصلاح العام. ومنه نخلص إلى أن التقوى، بما أنها تصلح القلب، فإنها تستلزم كمال الصلاح في الإنسان، وهذا عين كمال الدين وتمامه. وقد خصّ القلب كمحلّ للتقوى؛ لأن اجتناب المعاصي (وهو لبّ التقوى) إنما يكون بدافع الخوف من الله، والخوف محلّه القلب.

وبذلك يتمّ الكلام على الجملة الأولى من الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾(التوبة:١١٩).

**بيان معنى الصادقين**

**(الصادقون هم الكاملون في الدين)**

وأما الجملة الثانية: (وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ)، فهي في مقام بيان السبيل إلى تحقيق المقصود الأول، وهو التقوى، التي ثبت أنها كمال الدين. وخُلاصة المعنى أن الصحبة والمعية مع «الصادقين»، وهم في هذا السياق المتقون، هي الوسيلة الموصِلة إلى هذا المقصود. فـ«الصادقين» في الآية الكريمة ليسوا إلا عنوانًا آخر للمتقين، ومعنى «المتقين» هو الكاملون في الدين (كما ثبت فيما سبق)، فلفظ «الصادقين» سيكون له نفس المعنى، أي أن طريق التقوى (كمال الدين) هو صحبة ومعية الكاملين في الدين. وعليه، فمعنى (وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ): «كونوا مع الكاملين في الدين»، أي الزموا معيتهم.

ولا يُراد بالصادقين هنا مجرد من صدق قوله؛ بل المراد من ثبت في الدين ورَسَخ فيه. كما نقول في لغتنا (الأردية): «فلان صادق» بمعنى أنه رجل ثابت راسخ، لا يتزحزح. ولهذا السبب، وصف الله بعض أنبيائه بصفة «صِدِّيق»: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (مريم:٤١).

فالصديقية هي المرتبة التي تلي النبوة، ثم بعدها الشهادة، ثم الصلاح. وقد ذكر الله تعالى هذه المراتب بهذا الترتيب في قوله: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء:٦٩)، والرسوخ في الدين هو عين كمال الدين.

وعليه، فإن تفسير «مع الصادقين» بـ«مع الكاملين» صحيح، وهو مدعوم أيضًا من آية أخرى، هي قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾؛ بل هذه الآية تُثبِت دعواي في التقوى والصدق، أي أن معناهما كمال الدين وتمامه.

الآية الكاملة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧).

فخلاصة الأمر أن الصادق والمتقي هو من اتصف بهذه الصفات التي ذُكرت في الآية، وهذه الصفات تتضمن وتشمل كل عناصر الدين وجميع أجزائه إجمالًا، فلا جزء من الدين خارج عنها، فهي متضمنة لكمال الدين. ثم بقوله عز وجل: «أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ» (أي من اتصف بهذه الصفات فهو الصادق والمتقي)، يثبت بوضوح أن الصادق والمتقي هو الكامل في الدين، فحقيقة الصدق والتقوى هي تمام الدين وكماله.

فالدعوى التي ذكرتها في الآية: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهي أن معنى «ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ» هو «اكملوا في الدين وكونوا مع الكاملين»، أصبحت واضحة بلا غبار، وقد أيدها القرآن نفسه، ومن الواضح أن التفسير الذي تؤيده آيات أخرى من القرآن هو الأولى بالقبول.

**الطريق إلى الكمال**

ومعنى الآية إذًا: «يا أيها المسلمون، اكملوا في دينكم، والطريق إلى ذلك الذي بيّنه الله هو أن تكونوا مع الكاملين». وهذه طريقة عجيبة في الوصول إلى الكمال، لا يستطيع أي سالك في طريق الله أو محقق أن يبينها كما بيّنها الله. فمن ذا يخطر بباله أن صحبة الكاملين قد تقود إلى الكمال؟!

لكن ينبغي أن يُفهم هذا جيدًا: ليس المقصود أن مجرد الصحبة وحدها تكفي دون عمل. فلو أن شخصًا ظل سنوات طويلة مع الكاملين دون أن يعمل شيئًا، فلن يصل إلى الكمال أبدًا.

والحقيقة: أن الطريق الأصيل إلى الكمال هو إتقان الأعمال بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي. فقد وصفت آية: «لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ...» أهل البر والتقوى بأعمالهم. وبعد ذكر هذه الأعمال، وُصفوا بأنهم صادقون ومتقون، مما يدل على أن الكمال في الدين متعلق بكمال الأعمال.

لكن كيف نكمل ونتقن الأعمال؟ العقبة الكبرى أمام كمال الأعمال هي «النفس». فالنفس تعارض كل أمر شرعي. فالشريعة تأمر بالوضوء في البرد، والنفس تطلب الراحة. الشريعة تأمر بدفع الزكاة، والنفس تميل إلى البخل. الشريعة تحرّم الرشوة والربا، والنفس تميل إلى الحرص. الشريعة تنهى عن النظر إلى الأجنبيات، والنفس تميل إلى الشهوات. الشريعة تنهى عن التطلع إلى أموال الناس عند الفقر، والنفس تميل إلى الحسد والحرص.

وعلى هذا، كل حكم شرعي يقابله مقاومة من النفس. بينما قد أمر الله بالكمال في الدين، وبيّن أن ذلك يكون بجمع الأعمال وبإتقانها. إذن، ما الحل أمام مقاومة النفس لكل هذه الأوامر والنواهي؟ وما علاج هذه الرغبات النفسية الكثيرة التي تعيق العمل بكل أمر؟

**مقاومة النفس وعلاجها**

أزال الله سبحانه وتعالى في قوله: «وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ»، هذا المانع العظيم، أي مقاومة النفس، وبيّن علاجه. وخلاصة هذا العلاج: أن المعية مع الصادقين – أي الكاملين في الدين – تزيل مقاومة النفس في الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا بقي من مقاومة النفس شيء، فإن التغلب عليه يصبح سهلًا. وبهذا، يُمكن المرء أن يُكمل أعماله بسهولة، ومن ثم يتحقق له الكمال في الدين.

فانظروا، ما أسهل هذا العلاج؟! كأنها وصفة زهيدة وثمرتها عظيمة؛ بل هو علاج بالأعشاب لا يكلف شيئًا، ومع ذلك يعالج أعقد الأمراض.

والطريق الذي بيّنه القرآن لنيل الكمال الديني هو في الحقيقة طريق لإزالة المانع الأصلي، والعائق الرئيسي، وهو مقاومة النفس. ولأن الطريق إلى الكمال صعب ما دام هذا المانع موجودًا، فإذا ارتفع وأُزيل، سهل الوصول. فلو قيل: إنه هو نفسه طريق إلى الكمال، فلا ضير في ذلك؛ لأن العلة التامة تتركب من وجود الشروط وارتفاع الموانع، وكلاهما له دخل في تحقق المعلول، وإن كان وجود المعلول لا يتوقف إلا على الجزء الأخير. فالمعلول – أي الكمال الديني – لا يتحقق إلا بهذه الأسباب التامة، ومن جملتها إزالة عوائق النفس. وهذا ما أوضحته الآية القرآنية بأسلوب بديع. قد بُيِّن في هذه الآية طريق إضعاف مقاومة مطالب النفس. ومَن ذا الذي يمكنه أن يبتكر علاجًا أيسر من هذا؟!

لقد وضع أهل الفن طرقًا كثيرة لإصلاح النفس، تحتاج إلى صبر وهمّة عالية، وأعمال شاقة، والعمل بها من شأن أصحاب الهمم العالية. ولكن هذا الطريق (المذكور في هذه الآية) سهل جدًا لدرجة أن العمل به ليس شاقًا على أحد. وهذا ليس مجرد ادعاء من القرآن؛ بل هو أمر مشاهد ومُجرّب. فكل من جالس الكاملين الصادقين، لمس هذا الأثر في نفسه، حيث تضعف مقاومة النفس، ويشعر بانجذاب نحو الطاعة، ونفور من المعصية.

**رسالة ختامية**

إن طريق التقوى أو الكمال في الدين ميسّر لمن صدق في طلبه، وأعظم معين عليه – بعد توفيق الله – صحبة الصالحين الكاملين. فلنجعل هذه الآية الكريمة منهجًا لحياتنا: نسعى إلى التقوى والكمال في الدين، ونلتمس ذلك في صحبة الصادقين.

والله يهدي السبيل.

* * *

# موقف الإسلام من الفقراء

بقلم: فضيلة الأستاذ سيد شريف

دعا الإسلام إلى المبادئ الإنسانية القويمة التي تهدف إلى خلق أمة قوية متماسكة تشيع بين أفرادها أسمى المبادئ الخلقية التي تتمثل فيما تفيض به نفوسهم، من محبة خالصة، وود صادق، وتعاون حق، وأخوة أكيدة، حتى غدا المجتمع الإسلامي الأول، مجتمعًا مثاليًا فيه ثائرًا آلمه الجوع، وأمضه الحرمان، أو مظلوم أحزنه الإغضاء، وكاد يودي به النسيان، أو ظالم أمن في سربه، وقد أدمت سياطه الظهور، وغلت أوزاره الأعناق، أو غني طغى، وبغى؛ لأنه وجد من يمالئه طمعًا في ماله، وركونًا إلى جاهه، ورهبة من سلطانه؛ وذلك لأن الدستور الإسلامي سوى بينهم، وكفل لهم حقوقهم في حدود واضحة لا لبس فيها ولا غموض.

ورسم لأفراد مجتمعه، السبيل الواضح إلى الحياة الكريمة، حياة العاملين المناضلين، وكره منهم نوازع المذلة والمهانة، وندد بمن يستمرئون الكسل، ويستطيبون المسألة، ويستسيغون الاستجداء، ورعاية لهذه الأغراض النبيلة، لم يفرض للفقراء حقوقًا على القادرين وأرباب الثروات، إلا بعد أن دعاهم إلى الجد والمثابرة على السعي، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى فيمن يستحقون منهم المساعدة الاجتماعية ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٧٣).

وقد دعا الرسول ﷺ في قوة وحزم، إلى الدأب على العمل في صدق وإخلاص، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: أقبلت لأسأل رسول الله ﷺ، فوجدته يقول: «من يصبر، يصبره الله، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، قلت: فما أنا بسائلك اليوم»، وفيما رواه الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبلا، فيذهب فيأتي بحزمة حطب على ظهره

فيبيعها، فكف بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ «يا أبا بكر ما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة».

ولقد اتبع الفقراء الأولون السياسة التي رسمها الدين، وأخلصوا في تنفيذها، وأخذوا أنفسهم على القصد والاعتدال والقناعة عملًا بتوجيه الرسول وامتثالًا لإرشاده. وقد أصبحت هذه الصفات عقيدة لهم، يدينون بها. ويؤمنون بالإخلاص لها، ولذلك غدا كل منهم خارجًا عن سلطان بطنه فلا يشتهي مالا يجد، ولا يكثر إذا وجد، يدل على صدق ما نقول صنيع عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما أهديت له هدية، وإن في الدار اثني عشر رجلًا من أهل بيته. فقال عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اذهبوا بهذه إلى آل فلان، فهو أحوج بها منا. فقال الوليد بن عبادة: فأخذتها فكلما جئت أهل بيت يقولون: اذهبوا بها إلى آل فلان، فهو أحوج منها إليها حتى رجعت الهدية إلى عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل ا لصبح.

وحينما يعجز الفقراء عن السعي والجد لكسب قوتهم، لم يتركهم دستور الدساتير هملا يتضورون جوعًا ويعيشون في الأرض فسادًا؛ بل وضع لهم نظامًا قويما دعمه بأقوى الأسس وأثبتها؛ إذ فرض لهم على الأغنياء فيهم حقوقًا تفي بحاجاتهم ومطالب وجودهم، وتفسح لهم في مجتمعهم مكانًا لايحسون فيه فوارق تتشكى لها النفس، ويتبرم بها الحس.

ولقد عني بهذه الحقوق أكمل عناية، وفي غير نص من نصوصه، ولم يفرق بين المسلم وغيره تقديسًا للتسامح الذي ينهض أكثر من دليل على أنه من مميزات هذا الدستور. ورصد للوفاء بشؤون الفقراء، يستوي منهم من عجز عن العمل، ومن عدت عليهم عوادي الأيام، وحلت بهم صروف الزمن، ومن ضاقت مواردهم على أن ترتفع حياتهم إلى المستوى الإنساني الذي يليق بهم رصد لهم بابًا موفور الدخل. هو باب المساعدات الاجتماعية. ولما طبعت نفوس السلف على الخير، وحب البذل، والسبق إلى السخاء، استوى عندهم أن تمتد أيديهم بما أوجبه الدين، وجعله لزامًا عليهم. يطالبون بأدائه. وما يفعلون تطوعًا يبتغون به إلى الله التقرب والزلفى، مدفوعين إليه بضمير يقظ وحس مرهف.

وقد حذروا بمسارعتهم للبذل أن يحيق بهم ما حاق بثعلبة بن حاطب، وقد وعد أن يتصدق، ثم نكص على عقبه بعد أن غلبه الشح، وتمكن منه

الضن، فخاس بعهد قطعه على نفسه أمام رسول الله ﷺ قال فيه: فو الذي بعثك بالحق إن آتاني الله سبحانه مالًا لأعطين كل ذي حق حقه». ولما ثاب إلى رشده، بكى ندمًا وحثا التراب على رأسه، وفيه يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (التوبة:٧٥-٧٨).

وكان قمينًا بالمسلمين أن يستجيبوا في صدق إلى هذا النداء الإلهي الحكيم، إذا أحسوا من قائدهم الأمين وزعيمهم الملهم، محمد بن عبد الله، عملًا يسبق للقول، ودعوة إلى البر، تقفو جودًا كالريح المرسلة، يصدر عن قلب رحيم، أحب الفقراء ونهض بهم، وحباهم بفضل من عطفه، ولفت الأنظار إلى احترامهم. ورعاية أقدارهم حينما قربهم إليه، وأدناهم منه، وبالغ في صلتهم، وسوى بينهم، وبين من اعتقد أنه عريق الأصل، طيب الأرومة.

روي أنه كان عنده أول ما اشتد به المرض سبعة دنانير خاف أن يقبضه الله وما تزال باقية عنده فأمر أهله أن يتصدقوا بها، ولكن اشتغالهم بتمريضه والقيام على خدمته، واطراد المرض في شدته أنساهم تنفيذ أمره. فلما أفاق يوم الأحد الذي سبق وفاته من إغمائه سألهم ما فعلوا بها، فأجابته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها ما تزال عندها. فطلب إليها أن تحضرها، ووضعها في كفه ثم قال: ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه، ثم تصدق بها جميعًا على فقراء المسلمين.

وكذلك كان المسلمون يقتدون بالرسول ﷺ في حياته وبعد مماته. يدل لذلك ما روي أنه كان في المدينة في زمن النبي ﷺ شاب يقال له مالك بن ثعلبة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يكن في المدينة شاب أغنى منه، فمر بالنبي، والنبي يتلو: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤-٣٥).

فغشي على الشاب، فلما أفاق دخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: بأبي أنت وأمي هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

نعـم، يـا مالـك، قـال والـذي بعثـك بـالحق ليمسين مالـك ولا يملـك دينـارًا ولا درهمًـا، فتصدق بمالـه، وفعل عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يدل على تنفيذ المسلمين لهذه السياسة بعد رسول الله ﷺ، إذ رأى شيخا ضريرًا يسأل على بـاب فلما علـم أنـه يهـودي، قـال لـه: مـا ألجـأك إلى مـا أرى قـال: أسـأل الجزيـة، والحاجـة، والسن، فأخـذ عمـر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بيـده، وذهـب بـه إلى منزلـه فأعطـاه مـا يكفيـه ساعتها، وأرسـل إلى خـازن بيـت المـال يقـول: انظـر هـذا وضربـاءه، فـو الله مـا أنصفناه إن أكلنا شيبته، ثم نخذله عند الهرم.

هـذا هـو موقـف الإسـلام مـن الفقـراء، السـواد الغالـب في الأمـم والـشعوب، لم يـتركهم نهبًـا لـذوي الأغراض وأرباب الشهوات؛ بل حفظ لهم حقوقهم الإنسانية كاملة.

أما الآن – وقد تبدل الحال غير الحال؛ وغدت الأنانيــة والأثــرة شرعــة الأقويــاء، وســمة ذوي السلطان – فقد استشرى الفساد، وشاعت أسباب الفرقة والاختلاف، ولا أدل على ذلك مما نشاهده مـن تباعـد بين الطبقـات أفقـد الأغنيـاء ثقـة الفقـراء لأنهم تخلوا عما يوجبه دينهم من التعاون والتراحم. وعاشــوا في أبــراج عاجيــة، يحيــون حيــاة أبطــال الأقاصـيص، مـن تـرف وبـذخ، ومجـون وسرف. ينثـرون الـذهب عـلى موائـد الميـسر، وفي ميـادين السباق وأماكن اللهو.

أما مواسم البر ودواعي الخير؛ فليس لهم إليها مــن ســبيل ممــا جعــل الفقــراء ينقمــون علــيهم، ويتربصون بهم الدوائر، ويترقبون الفرصة المواتية؛ لأن ينتزعـوا مـنهم حقهـم في الحيـاة، ويتطلعـون إلى المبادئ الهدامة، علهم يحصلون في حماها على حقهم المغتصب، ونصيبهم المسلوب، وكرامتهم المهدرة. وإنسانيتهم الممتهنة بعد أن أيأستهم الوعود الخلابة؛ والأساليب المعسولة، وعبارات الكذب والملق.

ولا علاج لهذه الحالة، إلا إذا أحس الأغنياء، وأربـاب الثـراء أن في أمـوالهم حقـا معلومـا للـسائل والمحـروم، وأن عيونًـا تنبعـث منهـا نظـرات متقـدة، كأنها شواظ من نار، ترنو إلى ما في أيديهم من أموال ذاخرة، وما تصل إليهم من أرباح دافقة وترقب في عناية بالغة مصادرها، كيف جمعت وإلى أين ذهبت، وقـد تـيقظ الـوعي القـومي، فأصـبحت الـشعوب لا تــرضى بغــير التناســب والتناســق بــين الطبقــات، والتعاطف والتعاون، ليجد الجائع الطعام، والعاري الكساء، والمـريض الـدواء، والجاهـل العرفـان، وإذ ذاك ترفرف على الجميع ألوية الحب والسلام.

* * *

# حفظ اللسان

بقلم: الأستاذ عبد الحميد حجازي

لا جدال في أن اللسان سلاح ذو حدين. فكما أنه أداة شر مستطير، فإنه أيضًا أداة خير عظيم؛ فالإنسان يستطيع بحركة من لسانه أن يطفي نار عداوة مشتعلة، ويجمع بين قلوب متنافرة، ويصلح ذات بين، ويرأب صدع أسرة، ويلم شمل بيئة، ويضم أكف مواطنين بالمصافحة والإخاء. كما يستطيع هذا الإنسان نفسه بحركة من لسانه أن يفرق بين حميمين، ويؤجج لهيب العداوة والبغضاء، ويثيرها جذعة مذمومة، تحيل العمران خرابًا، والأمن اضطرابًا، والسعادة شقاءً، والأمهات ثكالى، والزوجات أرامل، والأبناء يتامى، ويلبس الحق ثوب الباطل، ويسير بالتضليل يشيد رواقه، ويدق إسفينه، ولا غاية له غير الشر غرامًا بالشر.

فإلى أمثال هذا من شياطين الإشاعات، وعبيد الألسن نسوق إحدى نصائح رسول الله عليه الصلاة والسلام:

روي أن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب إلى المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن اكتب إلي بحديث سمعته من رسول الله ﷺ» فكتب إليه المغيرة: إني سمعته يقول عند انصرافه من الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير (ثلاث مرات)، قال: وكان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ومنع وهات، وعقوق الأمهات، ووأد البنات».

وروي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة».

وروي عن أبي جرير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان

يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه».

وروي عنه أيضًا أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد ما بين المشرقين».

وروي عنه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم».

وأخيرًا قال اللطيف الخبير: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨).

وفي امتلاك الألسن احترام الشخصية، وتقدير للمكانة الإنسانية. وكلما اتسعت مدارك الإنسان واكتمل نضوج عقله، واستقام وجدانه، ورق شعوره، وسما إحساسه. كلما ترفع عن الإسفاف في القول، وأنف أن يلفظ في غير ذي موضوع، وحين يصل الإنسان إلى هذه المكانة الممتازة، عاش عيشة طيبة، يحب الناس ويحبونه، يقدرهم ويقدرونه، يأمنهم ويأمنونه، ينفعهم وينفعونه، يكون لهم ويكونون له، وبذلك ينطبع المجتمع بطابع إنساني مهذب، نهاره إنتاج وسعي، وليله استقرار وأمن، وتستقيم وجوه الحياة، ويشمل الجميع رضوان الله، وتفيض الخيرات على وجه الأرض، وتزول أسباب شكوى المصلحين، فينهض الوطن، ولا تجد الآثام مكانًا، وبذلك نستعيد مجدنا التالد، ونبلغ شأو الكمال والرفعة.

ولو لم يكن في حفظ اللسان غير ما ذكر لكفى به وازعًا إليه، ومرغبًا فيه.

وحفظ ا للسان لا يتوقف خيره على الغير، وإنما يتعداه إلى صاحبه؛ إذ من المقرر أن المرء إذا كف أذاه عن غيره، لا بد أن يكف غيره أذاه عنه، وحري بمثل هذا أن تحوطه القلوب بولائها. ويندر أن يعاديه إلا من انحط طبعه إلى الحضيض.

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فأي إنسان هذا الذي لا يضمن للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بين لحيته، وما بين رجليه ليضمن له الرسول الجنة؟!. أحسب أن من يتغاضى عن هذه الصفقة الرابحة، لا ريب أنه يكون متهمًا في إنسانيته وفي عقله جميعًا.

* * *

# وزير الخارجية الأفغاني يزور الجامعة على رأس وفد رفيع المستوى

بقلم: **التحرير**

في خضم ضجات إعلامية صاخبة وعلامات استفهام لانهاية لها تدور على الألسنة دوران السانية زار وزير الخارجية الأفغاني أعرق الجامعات الإسلامية الأهلية في شبه القارة الهندية: دار العلوم/ ديوبند يوم السبت ١٨/ ربيع الآخر عام١٤٤٧هـ= ١١/أكتوبر ٢٠٢٥م؛ حيث انطلق معاليه والوفد المرافق له في نحو الساعة الثامنة صباحًا، في عدة سيارات تحف بها سيارات الأمن والمراسم على طول الطريق من العاصمة الهندية: «دلهي» إلى «ديوبند»، ليصل إلى وجهته- ديوبند- في نحو الساعة الحادية عشرة، فما إن ولجت السيارات في المدخل الرئيس للجامعة على شارع جي تي (G.T.Road)، عابرة الجسر الطويل المنصوب على مدخل المدينة إلى نهايتها، آخذةً لفةً بالقرب من الجامعة الطبية في ضواحي المدينة- ما إن دخلت السيارات مدخل الجامعة حتى قابلت بسيل عارم من الطلاب والوافدين من خارج المدينة مصطفين على جنبتي الطريق من المدخل إلى قاعة الحديث في المجمع الكبير- الذي يضم المكتبة الرئيسة الجديدة قيد اللمسة الأخيرة وقاعة دارالحديث -، فكانت السيارات تدب دبيب النمل لكثرة الزحام، وبعد اللتيا والتي ومعاناة شديدة في التغلب على الحشود المائجة بعضها في بعض، لاقاها رجال الأمن والمراسم، وصلت السيارات إلى المجمع، وكان قد تقرر أن يقدم له حرس الشرف التحية قبالة المجمع؛ ولكن السيل العارم الخارج عن السيطرة ذهب بذلك كله أدراج الرياح، ولم يجدوا بدًّا من التوجه به وبالوفد المرافق له إلى قاعة الحديث ليتلقى درسًا في الحديث النبوي على رئيس الجامعة وشيخ الحديث بها فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني، فجلس بجواره على سريرٍ عالٍ بعض الشيء من الأرض، والقاعة مكتظة بآلاف مؤلفة من الطلاب، حتى كان ما حوله مثل مراح الضأن. واستمع إلى الحديث ونال إجازة بروايته.

وبعد نهاية هذه الجولة من فعاليات الزيارة في قاعة الحديث توجه الضيف المبجل والوفد المرافق له إلى دار الضيافة الجامعية وسط عدد لابأس به من رجال الأمن، مرورًا بجمع حاشد، يود كل واحد منهم أن يلقي نظرة عليه أو يلتقط صورة معه أو يواجه عدسات الكاميرات عسى أن تحفظ له صورةً. وكان في استقباله في دارالضيافة كبار مسؤولي الجامعة علاوة على رئيسها – فضيلة الشيخ السيد أرشد المدني حفظه الله – رئيس هيئة التدريس بالجامعة ورئيس جمعية علماء الهند-،

وفضيلة الشيخ عبد الخالق المدراسي- نائب رئيس الجامعة-، وفضيلة الشيخ المفتي محمد راشد- نائب رئيس الجامعة - حفظهم الله ورعاهم، وعدد لابأس به من أساتذتها، من أبرزهم فضيلة شيخنا بحر العلوم الشيخ نعمت الله الأعظمي، والشيخ مجيب الله الغوندوي حفظهما الله تعالى. وكان قد تسرب عدد كبير من الصحافيين المحليين والوافدين من المناطق الأخرى لتغطية فعاليات هذه الزيارة واللحظات التي يقضيها في رحاب الجامعة.

وتناول الضيف والوفد المرافق له في دارالضيافة الغداء مع مسؤولي الجامعة، وتخلله أحاديث ودية عفوية، ثم انعقدت جلسة في قاعة الاجتماعات، وتجاذبوا أطراف الحديث الذي تطرق إلى العلاقات العلمية الوثيقة بين الجامعة وبلاد أفغانستان حيث كانت البعثة الأولى الطلابية الوافدة التي التحقت بدار العلوم/ديوبند في أيامها الأولى هي البعثة الأفغانية، فجاء في تاريخ دارالعلوم/ ديوبند: «إن العلاقة بين «الهند» و«أفغانستان» تحمل أهمية تأريخية قصوى، و توجه طلاب أفغان إلى الهند للدراسة في «دارالعلوم» منذ نشأتها. وفي عام ١٢٨٣هـ=١٨٦٦م - نشأة دارالعلوم- تجد من بين الطلبة المنتمين إلى مختلف أصقاع الهند عديدًا من طلاب «أفغانستان» جاؤوا ليستقوا من هذا المنهل العلمي الفتي، واستمر توجه البعثات التعليمية الدينية الأفغانية إلى الجامعة منذ ذلك الحين». وانعقد مجلس مع كبار أساتذة الجامعة بعد صلاة الظهر، وتبادلوا أحاديث علمية وودية.

وكان من المقرر أن تعقد الجامعة حفلةَ ترحيب على مقدم الضيف المبجل، يلقي فيه كلمته، ويبدي انطباعاته، ولكن نظرًا للسيل العارم من الحضور لم تجد الجامعة محيصًا عن إلغاء بعض الفعاليات، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وعاد الضيف في نحو الساعة الثالثة والنصف مساء بعد وداع وتشييع يفعل في القلوب فعله، ويترك بصمات واضحة المعالم على العلاقة الثنائية، حاملا معه من الذكريات وِقرَ بعير. وأثبت الضيف في السجل الخاص انطباعاته باللغة الأردية فيما يلي معناه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أشعر بفرحة غامرة بأن سعدت بزيارة الجامعة الأم في شبه القارة الهندية وأساتذتها ومشايخها، ولا أنسى ما بقيت على قيد الحياة ما لقيته من الاستقبال الحار والحفاوة البالغة من الطلاب الأعزة.

ولقد رفع الله تعالى دار العلوم ديوبند منزلةً تعجز كلماتي عن وصفها والتنويه بها. وليست هذه السعادة بكد اليمين، وعرق الجبين كما يقول الشاعر الفارسي.

وأدعو الله تعالى أن يكتب لبستان العلم هذا البقاء والديمومة والنضارة ما بقي الليل والنهار».

**المولوي أمير خان متقي**

وزير الشؤون الخارجية بإمارة أفغانستان الإسلامية».

* * *

## بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

ثم خرج بنا صاحبنا من الجامع إلى وجهتنا على بعد كافٍ من المدينة... قرية غامرة خاملة وراء الزروع والأنجاد والوهاد. فسارت السيارة بمن فيها خطوات سريعة تلتف بنا يمنةً ويسرةً، في أرض لاتجد فيها من معالم الحياة والعمران إلا ما شذ وندر، في فلاة لا جادة فيها بعد أن جاوزنا آخر بيوت المدينة وراءنا، ما دنت منا وجهتنا ودنونا منها، والسيارة لايدور بنا دورة إلا صعدت نشزًا أو هبطت هوة أو داست حجرًا من الأحجار، وهي تهتز بنا حتى مخضتنا مخض الحليب، وتكفأت بمن فيها كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر، وحينَه تذكرت رحلة من رحلاتي في بلد من بلدان إفريقيا، اشتهر باختلال النظام، وفشو الفوضى، واضطراب حبل الأمن وانتكاثه، لاترى فيه حيث حللت إلا البلاء الأزرق والموت الأحمر، حين خرجنا من البيوت للقاء بعض الإخوة و زيارته على غير هدى، في أرض لا نعرفها، وانفلات أمني لانألفه، و ربما ما وطئتها السيارات قبلنا منذ برأها الله إلا قليلا، فلاتسأل عن طول هذا العناء، وعما لقينا من الألاقي وقت الزوال والشمس في كبد السماء، والصحراء حولنا كأن حجارتها ترمي بشرر كالقصر، ويتلون فيها الخريت من خوف التوى كما تتلون الحرباء، فامتد بنا السير حتى دخلنا بيتًا أشبه بالعش، على جدرانه الأربعة تماثيل، ولم يؤمن بالله تعالى من أهله إلا نفس واحدة، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦].

فسِرنا في هذه الفلاة الموحشة، يدور بنا السائق الخريت دوران السانية، وقديمًا قال العرب في أمثالها: سير السواني سفر لاينقطع، فقلت له: هل تعرف الطريق أم تخبط بنا خبط عشواء، فأثار هذا السؤال من عجبه ما أثار، وهاج فيه ما هاج، وأكد لنا أنه يعرف هذه المناطق شبرًا شبرًا، وأنه سلك هذه الطرق بعدد شعر رأسه، وهل أحد أدرى بشعاب مكة من أهلها؟ فخطت السيارة بنا خطوات طويلة، والطريق لا يزداد إلا وعورة وصعوبة وحفرًا و وهادًا، ونخاف ألا نرجع من هذه

الوعور إذا أوغلنا فيها.

وبعد اللتيا والتي انتهينا إلى قرية قاتمة الأعماق وخاوية المخترق، ولم نعد نرى وراءها دنيا حافلة بالأبنية الناطحات السحاب، والحياة الدائبة وكثافة السكان، و زحمة المرور، فقالوا: هذه وجهتنا، فما إن توقفت السيارة حتى حف بنا أكثر من خمسين من طفل صغير، ورجل شيخ، وآخر شاب، يتهافتون على سيارة القادم تهافت الفراش على النور، فلم نتخلص منهم إلا بشق النفس حتى دخلنا مسجدًا من مساجد القوم- وما أقل المساجد في هذه المنطقة-، انعقد فيه مجلس ختمة القرآن الكريم وقراءته حفظًا ونظرًا.

وما إن تبوأنا مقاعدنا فيه على بساط بسيط مفروش على أرضه حتى بدأ طفل صغير بتلاوة آي من القرآن الكريم، ثم طفل آخر، وثالث ورابع... فيا له من صوت عذب، ولحن شجي، وأداء مشرق، يشنف الآذان، ويزيل عن النفس الحزينة ما ترزح تحته من بؤس وشقاء.

ومن إعجاز القرآن أنك تجد طفلا صغيرًا- من أمة بعيدة كل البعد عن الثقافة الإسلامية، ولا يرضى كثير من الدعاة والمرشدين أن يدخلوا بيوتهم يدعونهم إلى الدين، وإلى إقامة شعائره وامتثال أحكامه، فقد غفلت الأمة المسلمة عن هؤلاء القوم غفلة مزرية، و ولت ظهرها وأعمت أبصارها عن تلبية حاجاتهم الدينية والعلمية-؛ بل أطفالا صغارًا منهم يتسابقون إلى قراءة القرآن الكريم، وتجويده وتحسينه بأصواتهم البريئة، ويتنافسون في الرد على الأسئلة التي تخص بعضها أدق مباحث التجويد والقراءات، فوجدت مقدم الأسئلة لايكاد ينتهي من طرح السؤال حتى يقوم للجواب عنه عدد لابأس به من طفل وطفلة لاتتجاوز أعمار معظمهم ثمانية إلى عشرة أعوامٍ... إنه تحول كبير مشجع و مشرف لهذه الأمة في هذه المنطقة، ولم يأتِ هذا التحول عن فراغٍ، وليس هذا الواقع وليد صدفة و اتفاق؛ فإنه يتطلب همم الآساد وصبر الجمال، وإن وراءه جهودًا، ومساعي، وتضحيات، وفق الله تعالى لها حفنة من أهل العلم الغيارى على القرآن والعلم الديني، ممن

يقضّ مضاجعهم ما يرونه من إهمال وهجر للقرآن الكريم ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠]. ولاتعدم مختلف أصقاع البلاد أمثال هذه الأوضاع التي يجب أن تنغص على المسلمين العيش، وتطير النوم من العيون. ولكن مَن لهؤلاء القوم، ومن لذريتهم ؟؟... ألف علامات تساؤل.

وقضيت بين هؤلاء القوم مدة من الزمان، لا أدري أنا بتلاوة هؤلاء الصغار للقرآن الكريم وحفظهم له أفرح أم بجهود هؤلاء الغيارى في هذه المنطقة القاحلة الغامرة التي لم تمتد إليها يد المدنية والحضارة.

وجلسنا وجلس الحضور عالمهم وجاهلهم، وبدويهم وحضريهم، وسادتهم وسوقتهم، وصغيرهم وكبيرهم، وغنيهم وفقيرهم- ومعظمهم فقراء بائسون، يستقطرون العيش بما توفر لهم من فرصه الضئيلة – ننتظر الصلاة في صفوف متساوية، ولم يبق بيننا من تفاوت وفرق، ولم يعد يمتاز بعضنا عن بعض، وتحققت المساواة التي تستميت لها الحضارات، وتدعي زعامتها كثير من أمم العالم-، ويطلبها الناس فلايجدون إليها سبيلا، ولايعودون إلا بخفي حنين أو بلا خف. و ذاق المال نكسةً أي نكسة، فلم يعد له يد في المفاضلة بينهم، ولم يبق في نفس الصغير مهانة، وفي نفس الكبير عظمة وكبر.

وبعد أن صلينا وراء إمامهم، ودَّعْنا هؤلاء القومَ، وشيعونا إلى السيارة، وخرجنا من عندهم في صفرة الطفل، وقد سجا المساء، وسكرت الريح، حاملين في جعابنا ذكريات طيبة، داعين الله تعالى أن يتقبل جهودهم قبولاحسنًا، ويبارك في أعمالهم، التي تحتاج أول ما تحتاج إلى إرادة قوية صلبة صامدة صمود الجبال الراسيات، وإلى مغامرة، وإلى اقتحام عقبات، واستهانة المشقات، وإلى غيرة قلبية، وقبل هذا ذاك إلى الإخلاص، ونسيان النفس.

ألا نفوس أبيات لها همم

أما على الخير أعوان وأنصار؟!

* * *

# أما على الخير أعوان وأنصار؟!

في يوم من الأيام كليل تهامة، لا حار ولا بارد، وسماؤه صافية زرقاء، وشمسه مشرقة، ترسل أشعتها الذهبية على الكون فتمحو ظلال الليل، وتهتك ستره المسدول على الدنيا، كلفني صاحب لي حميم ينطوي قلبه على ود وحب وإخلاص، ونصح لله ولرسوله ولكتابه ولعامة المسلمين- كلفني- أن أزور بلده وألقي في جامعه كلمة تنفعني وتنفع الناس، فخرجت من البيت بعد أن خرجت الغزالة من خدرها، في سيارة وسط بين السيارات، لا صغيرة ولا كبيرة. فسارت بنا سيرًا هادئًا، وتجازونا بعض القرى الصغيرة والكبيرة حتى عرجنا على قرية كبيرة، ونزلنا ضيفًا على بعض أهلها من قرابتنا، ففرحوا بمقدمنا واستبشروا برؤيتنا، فكان اللقاء وكان العناق وكان الاستمزاج بعد طول فراقنا. وقضينا بين هؤلاء القوم الكرام ساعة أو ساعتين، وأعجلنا عن لقاء كثير منهم قرب موعد مغادرتنا إلى وجهتنا على بعد أميال وكيلو مترات، لا أكاد أحددها بالضبط.

ثم استأنفنا السير على شارع عام سريع، فسارت بنا السيارة سيرًا حثيثًا، حتى بلغنا مشارف المدينة والساعة تدق الثانية عشر ظهرًا، واليوم يوم الجمعة، واستقبلنا صاحبنا بأصحاب له من وجوه المدينة وعلمائها. وأدينا الجمعة وكانت لي كلمة في الجامع قبيل الصلاة. وما إن انصرفنا من الصلاة حتى حف بنا حشد من الناس صغيرهم وكبيرهم يلقون التحية ويصافحون ما سمح لهم الوقت، حتى مرت ساعة أو نحوها.

(البقية على ص ٥٣)

**أبو عائض القاسمي المباركفوري**